الباب الأول

القضايا النقدية في الشروح

الفصل الأول: قضية اللفظ والمعنى

الفصل الثاني: قضية الأخذ الأدبي

الفصل الثالث: قضية نقد الرواية والرواة (التوثيق)

الفصل الأول: قضية اللفظ والمعنى

الفصل الأول: قضية اللفظ والمعنى

لقد شغلت هذه القضية - ولا تزال - حيزًا كبيرًا من اهتمام النقاد القدامى والمحدثين على السواء، وهي تعد "نتيجة حتمية من نتائج التفكير الفلسفي والعقلدي الذي ساد في القرن الثالث الهجري، وهي صورة حديثة من صور التفكير المنطقي الجامد والنظرة الشكلية للشعر"[1].

حيث خضعت هذه القضية منذ ظهورها لآراء النقاد وتباين آرائهم، حتى "إن العلماء، من قدامى ومحدثين - على كثرتهم، وعلى طول ما عالجوا هذه القضية - لم يتفقوا على رأي واحد، تطمئن إليه النفوس المتلهفة إلى معرفة الحقائق على وجهها الصحيح الصريح"[2]، وأن هناك من انتصر للفظ على المعنى، ومن انتصر للمعنى على اللفظ وهناك من رضي بالمساواة بينهما[3] "لقد فصل القدماء بين اللفظ والمعنى، وكذلك فصل بينهما بعض المحدثين، وكانت أكثر عبارات القدماء تدل على أن المتكلم يستحضر المعنى في ذهنه - أولا - ثم يبحث له عن لفظ يؤديه به"[4]. ونغني عن البيان أن الاهتمام بهذه القضية امتد إلى الشراح أيضا، ولما لا وهم يعدون من نقاد الشعر ومحلليه على كافة مستوياته اللغوية والأدبية ... إلخ.

وتعد أشعار حماسة أبي تمام مجالا خصبا لإثراء هذه القضية سواء على الجانب النظري أم التطبيقي، وقد تصدى شراح ديوان الحماسة بمقدار لبيان أبعاد هذه القضية في النصوص الشعرية وتحليلها، معتمدين في هذا على ذوقهم الأدبي المدرب، وخبرتهم الواسعة بالشعر العربي، ولعل المرزوقي هو أبرز من يتجلى فيه هذا الاتجاه ويمثله، خاصة والذي يتأمل شرحه لديوان الحماسة "يروعه من الرجل السعي وراء تجلية معنى النص عن طريق اللغة والنحو، إيمانًا منه - كما يبدو في صنيعه - بأن النص عبارة عن مجموعة من العلائق والطرائق تنتظمها اللغة، وما دام الأمر كذلك وجب على الناقد ألا تغرب عنه تلك الحقيقة، وأن يدرك - إلى جانب ذلك - أن أس عمل أديه في تقويم العمل الأدبي أو النص الشعري أن يأتيه من بابه، فالركيزة الأولى - إذًا - لشرح النص، وكشف القناع عنه أن يجتهد العالم أو الأديب في إزالة ما يغشى النص من ضبابية تكتنفه أو غيوم تلبده حتى يبدو ساقرًا أمام الذهن، ويمكنه - بعدئذ - أن يطير إلى حيث يرجو من مسابح، أو أن يضفي على النص من رواء ما يزيد جمالا أخاذًا، وروعة أسرة ..."[5].

وللمرزوقي رأي في بنية النص الشعري أدته إليه مقارنته بين النثر والشعر وتحسسه خواص الشعر الشكلية القائمة على الوزن والقافية ووحدة البيت الذي ينتج عنه حصر المعنى الشعري في حدود المدى الذي يسع بنيته، مما مكنه من الوعي بتلازم خاصيتي التكثيف والغموض في الشعر "لذلك وجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى، وأن يبلغ الشاعر في تلطيفه، والأخذ من حواشيه، حتى يتسع اللفظ له، فيؤديه على غموضه وخفائه، حداً يصير المدرك له والمشرف عليه، كالفائز بذخيرة أعتمها، والظافر بدفينة استخرجها"[6].

---

(١) د العربي حسن درويش: النقد العربي القديم "مفاهيمه واتجاهاته وقضاياه وأعلامه ومصادره" مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩١ م، ص ٦٧

(٢) د محمد علي حمدان العماري: قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي: القاهرة، مكتبة وهبة، ط١ / ١٤٢٠هـ ١٩٩٩ م، ص ٢٠.

(٣) انظر - د.يوسف حسين بكار: بناء القصيدة في النقد العربي القديم، ص ١١٣، ص ١٢٨، في حديثه عن مذاهب النقاد في قضية اللفظ والمعنى.

(٤) د.محمد علي حمدان العماري: قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي: ص ٢٠.

(٥) د/ياشي محمد أبو عيسى. القضايا الأدبية والنقدية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة. دار المعارف بمصر، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٣ م، ص ١٠٩، ١١٠.

(٦) انظر: مقدمة شرح المرزوقي لديوان الحماسة: ٥.

ولعل ما يضيف إلى المرزوقي وزناً بالإضافة إلى هذه النظرات التي كانت خلاصة للاستيعاب العميق لنتاج سابقيه من النقاد، صياغته نظرية عمود الشعر العربي الصياغة النهائية، كما أصبحت فكرة مشاكلة اللفظ للمعنى في حد ذاتها أصلاً مهماً من أصول عمود الشعر عند العرب[1].

قد عكست شروح ديوان الحماسة ـ جميعها ـ هذا الاهتمام بألفاظ شعراء الحماسة ومعانيهم، وهو ما سيتبدى لنا من خلال العرض التالي:

المبحث الأول: الألفاظ:

اهتم البلاغيون والنقاد العرب باللفظ، ولا يعني ذلك أنه الأساس ولا قيمة للمعنى، بل الأصل "إصابة المعنى" و"تحسين اللفظ" واللفظ والمعنى مرتبطان[2]، وقد انعكس هذا الاهتمام ـ أيضاً ـ بصورة واضحة على شراح الحماسة، فكانت اللغة في شروحهم، من أهم الوسائل التوضيحية لتحديد ماهية اللفظ ومدلوله، فهي من العوامل الأساسية في فهم الشعر وتفسيره معاً، لذلك وجدناهم نشطاء في تحديد "الرواية" لغوياً، ذلك التحديد الذي كان فرصة للدخول إلى علم اللغة بكل أبعاده، ومن جميع أبوابه، ولقد كانت رواياتهم المتعددة مجالاً للقول لا من حيث الرواية وتحديدها فحسب، ولكن مجالاً رحباً لتحديد أصل اللفظ وتوضيح ما طرأ عليه من تغييرات؛ لإبانة الدقيق في أداء المعنى، والبعيد الذي لم يوافق الشاعر في اختياره، ليؤدي المعنى الذي أراد، وذلك وفق منهج واضح نتبينه الآن فيما يلي:

أولاً: البحث المعجمي:

لقي هذا اللون من البحث عند الشراح عناية كبرى، فهم يبدأون بالجزء ويتدرجون إلى أن ينتهوا إلى الكل، ويتوسلون بالجزئيات للوصول إلى الكليات، وهذا هو المنهج الذي صار عليه معظم من تصدوا لشرح شعر الحماسة من العلماء كابن جني، وابن فارس، وأبي هلال العسكري، كما نال حانبًا مهمًا من اهتمامات المرزوقي والتبريزي والأعلم الشنتمري.

ولننظر ـ مثلاً ـ في قول أبي النشناش: (الطويل)

وثانيـــــةِ الأرجَـــــاءِ طامـــــعةِ الـــــصُّوَى خَـــــدَتْ بـــــأبي النَّـــشْنَاشِ فيهـــا زفايَـــــةُ

فقد فسره ابن فارس معجميًا قائلاً: "الثانية: البعيدة. الأرجاء: النواحي، واحدها: رجا. والصوى: الأعلام. والطامسة: التي لا يهتدى لطريقها. يقال: طريق طامس، وطامس: إذا طمسته الريح. خدت، تخدي، خديًا. ووخدت، تخد. فخدت تخدي، مثل: مضت تمضي. ووخدت تخد، مثل: وعدت تعد، فإذا أمرت الناقة من الوخدان، قلت: خدي، كما تقول من الوعد، عدي. وإذا أمرت الناقة من الخديان، قلت: اخدي. كما تقول للمرأة: امضي إذا أمرتها بالمضي. والركائب: جمع ركوبة: وهي النوق التي تعد للركوب"[3].

---

(١) انظر: مقدمة شرح المرزوقي لديوان الحماسة: ١ ـ ٩.

(٢) أبو هلال العسكري: الصناعتين: الكتابة والشعر، بتحقيق / محمد علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧١ م، ص٦٩.

(٣) ابن فارس: الحماسة، المنتخب أبي تمام، تحقيق د.هادي حسن حمودي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م، ص ١٠٦ ، ١٠٧.

وفي سبيل كشف الشارح عن مفهوم للفظة وتحليلها، سلك عدة طرق[1] يمكن إيجازها في الآتي:

- في إطار سعي الشارح إلى تحديد دلالة المفردة ومعناها المعجمي فإنه يستعين في سبيل ذلك بالشواهد المختلفة من شعر ونثر، أو بما اعتادته العرب في استخدام المفردة وبما يتصل به من أحوالها. فمن أمثلة الاستعانة بالشواهد النثرية من قرآن كريم ما أورده أبو هلال العسكري في تفسير لفظة (دعا) في قول الطائية: (الطويل)

دَعَـا دَعْـوةً يَـوْمَ الـمُثَرَّى يَـسَارَ مَالِـكٍ ... وَمَـن لا يُجِـبْ عِنْـدَ الخَلِيقَـةِ يُكْلَـمِ

"رواه هنا الشيخ: لا يجب؛ بكسر الجيم. والصواب: فتح الجيم: (لا يجب)، وأول البيت يدل على ذلك، وهو قوله: (دعا .. يا مالك)، فالمراد: أنه استغاثهم، فلم يغيثوه، وتركوه لأعدائه، فكلموه، حتى قتلوه. والكلم: الجرح، ومن استغاث فلم يغث، جرح. والدعاء (ها هنا): الاستغاثة والاستعانة، ومنه قول الله تعالى: "وادعوا شهداءكم من دون الله" (البقرة / ٢٣). أي استغيثوهم، ولم يرد الشاعر أن هذا الرجل لم يجب الداعي المستغيث؛ فكلم، ومن لا يجيبه يكلم؛ لأن هذا قلب المراد، وعكس المعنى"[2].

ومن شواهد القرآن الكريم وكلام للعرب ما أورده ابن جني في تفسير لفظة (عز) في قول دريد بن الصمة: (الطويل)

وعَـزَّ فُـؤُوسُ ثَخْجَـلٌ الطُّيْـرُ خَوْفَـهُ ... وعَـزَّ العِـصَابُ جِئْـوَ قَبْـرٍ عَلَـى قَبْـرِ

" عزه أي غلبه، تقول العرب: قد عزني الشعر والقول أي: تعذر علي، وقال الله تعالى: "وعزني في الخطاب" أي علبني، وهو متعد كما ترى، وليس قولهم في الدعاء "أعزك الله" منقولا من هذا، لأنه لو كان منقولا منه لوجب بالنقل أن يتعدى إلى مفعولين، ولم يسمع هنا في نثر ولا نظم أكثر من مفعول واحد، فهو إذن من عز الشيء يعز إذا اشتد وصلب، ومنه: الأرض العزاز لصلابتها"[3].

ومن القرآن الكريم كذلك والمثل ما نجده عند النمري في تفسير لفظة (يجاءه) في قول بعض بني قيس: (الكامل)

كَيْمَـا أُعِـدُّهُمُ لأَبْغَـدِ مِنْهُمُ ... وَلِمِثْـلِهِ يُجَـاءُ إِلَـى ذَوِي الأَحْقَـادِ

"وقوله: "ولمثله يجاء"، أي: يضطر، يقول: "أجاءه إلى كذا وكذا"، أي اضطره إليه. قال الله عز وجل: "فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة" (مريم / ٢٣)، ومن أمثال العرب: "شر ما أجاءك إلى مخة عرقوب"، يقول ربما اضطر الإنسان إلى عدوه، فلذلك داريتهم"[4].

ومن شواهد الحديث الشريف والمثل وكذلك الشعر ما أورده المرزوقي في تفسير لفظة (هم) و(هاتبا) في قول سعد بن ناشب بن مازن بن عمرو بن تميم: (الطويل)

إِذَا هَـمَّ لَـمْ تُـزْدَعْ عَزِيمَـةُ هَمِّـهِ ... وَلَـمْ يَـأْتِ مَـا يَـأْتِي مِـنَ الأَمْـرِ هَاتِبَـا

---

(١) نقلا عن السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح التنساء على شعر أبي العلاء، ص ٢٣٩ : ٢٤٨، المنصور فقط خلا الشواهد والتعليق عليها.
(٢) أبو هلال العسكري: رسالة في ضبط وتحرير مواضع من الحماسة: ص ١٤٧ ، ١٤٨.
(٣) ابن جني: التنبيه على شرح مشكل أبيات الحماسة: ص ٢٢٠، حماسية (١٦٣).
(٤) النمري: معاني أبيات الحماسة: ص ٥٩، الحماسية (٥٧).

" الهم: ما تحيل لفعله وإيقاعه فكرك. والهمة: اسم الحالة التي تكون عليها في ذلك. ويقال في المثل لمن يحير بطول الأمل: "تهم ويهم بك"، ومنه المهمات، وهذا يخبر عن نفسه بأنه يتبع الرأي الأول. وهذا طريقة الفتك لأن الرجوع عن الرأي إلى غيره طريقة من يتدبر العواقب فيترك للشيء إلى الشيء لما يرجوه من حسن المآب. فقال: إذا هم هذا الرجل بشيء أنفذ عزيمته ولم يردعها، ولم ينفل ما يفعله خائفًا. ومثله قول الآخر: (الوافر)

جَمُوحٌ لا يُـــزَعُ عنـــد هَـــمٍّ ولا يُثْنِـــي عَزِيمَتَـــهُ انْثِنَـــاءُ

ويقال: ردعته فارتدع، أي كففته وردته ردعًا. ومنه الرداع في العلة وهو النكس، يقال ردع ردعًا ورداعًا. والهيبة تكون من الذعر ومن الإجلال جميعًا، ويقال للجبان هيوب وهيوبة، والهاء للمبالغة، وللمحتشم مهيب. وفي الحديث: "الإيمان هيوب". ويقال: تهيبت الشيء وتهيبني بمعنى، لما كان لا يلتبس، ومثله من المقلوب كثير"[1]. وغير ذلك من الشواهد النثرية.

أما الشواهد الشعرية فكانت حاضرة بكثرة في كافة الشروح، وإن تفاوتت معدلاتها بين الشراح، أتلهم أبوهلال العسكري والتبريزي، وسأكتفي هنا بنموذج أو نموذجين.

يقول أبو هلال العسكري في تفسير كلمة (ناشر) في قول الشاعر: (الطويل)

وَلا الـــدَّهْرَ مِمَّـــا يُحْـــدِثُ المَـــوْتُ مُعْتِـــبٌ وَلا المَيِّـــتُ إِنْ لَـــمْ يَـــصْبِرِ الحَـــيُّ نَاشِـــرُ

"يقول: إن صبر الحي، أو لم يصبر، فإن الميت لا يبعث، بعد الموت، في الدنيا - يحث على الصبر، ورواه هذا الشيخ: (ولا الحي إن لم يصبر الحي ناشر)، وهذا أعجب شيء سمعناه؛ لأن الحي لا يحتاج إلى النشور، وإنما الميت ينشر، يقال: (أنشر الله الموتى ونشروا هم)، وقال الأعشى: (السريع)

حَتَّـــى يَقُـــولَ النَّـــاسُ ممَّـــا رَأَوْا يَـــا عَجَبًـــا لِلمَيِّـــتِ النَّاشِـــرِ ! "[2].

وفي قول العرندس أحد بني أبي بكر بن كلاب: (الطويل)

هُمُ الـــوَافِـــونَ أَيْـــمَانَ ذُو كَـــرَمٍ سُـــوَامَ مَكْرُمَـــةٍ أَبْـــنَاءُ أَبْـــنَاءِ
إِنْ يَـــسْأَلُوا الخَيْـــرَ يُعْطَـــوهُ وَإِنْ خُبِـــرُوا فِـــي الجَهْـــدِ أَنْدَكُ مِـــنْهُمْ طِيـــبُ أَخْبَـــارِ
وَإِنْ تَـــوَدَّدْتَهُمْ لاَقَـــوا وَإِنْ شُـــوِرُوا كَـــشَفْتَ أَنْفَـــسَ شَـــرٍّ غَيْـــرَ أَشْـــرَارِ

يقول المرزوقي: "والأيسار: جمع اليسر، وهم الذين يجتمعون في الميسر على الجزور عن الجدب والقحط فيجيلون القداح عليها، ثم يفرقونه في الفقراء وأرباب الحاجة والضراء. ويقال: يسر إذا أجال قدحه، فهو ياسر ويسر. قال: (الطويل)

إِذَا يَـــسَرُوا لَـــمْ يَـــوْرِثِ اليَـــسَرُ بَيْـــنَهُم قُـــوَاجِنَ تُفْـــنِي بَكْرَهَـــا بِالمَـــصَايِفِ

وقال أبو ذؤيب: (الكامل)

فَكَـــأَنَّهُنَّ رِبَابَـــةٌ وَكَأَنَّـــهُ يَـــسَرٌ يُفِـــيضُ عَلَـــى القِـــدَاحِ وَيَـــصْدَعُ

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: ج١/ص ٧١، ٧٢.
(٢) أبو هلال العسكري: رسالة في ضبط وتحرير مواضع من الحماسة: ص ٢٠٠، ٢٠١.

والمعنى أنهم يرجعون إلى سجاحة خلق، وسلامة طبع، موقرون في مجالسهم، متكرمون في عاداتهم وشؤونهم، متعطفون على الفقراء زمن الجدب بميسرهم، يسوسون المكارم ويمرونها بعد ابتنائها، ولا يفلون عنها، وأن هذا الخصال لم يرثوها عن كلالة، وأن آباءهم على ذلك درجوا وتقصوا. ثم قال: إن يسألوا الخير يعطوه، يريد أنهم لا يتقاعدون عن البذل في الحقوق والنوائب، ولا يحوجون إلى استخراج ذلك منهم بالعنف والاستقصاء بل يخرجون منها إلى أصحابها، والمطالبين بها، وإن جربوا عند جهد البلاء، واشتمال الشدة والبأساء، وحملوا أكثر مما يلزمهم، وأثقل مما ينهض به حالهم، طابت أنفسهم، وحسنت لذلوهم، والأحاديث عنهم. ومن انتمى يتقرب إليهم، أو تودد لهم، لانوا له، وانقادوا لما يريده من حبتهم. وإن أوذوا وأحرجوا انتشفوا عن أنصار شر - وهو جمع الذمر، وهو الشديد لا يطاق - وإن كانوا في أنفسهم وسجاياهم غير أشرار، إلا أنهم إذا جنبوا إلى الشر والحنوا زادوا على الأشرار. وقوله شهموا أي هيجوا . ويقال: فرس شهم، أي جيد نشيط بكر، ومنه الشبهم. ويقال شهم الرجل، إذا ذعر أيضاً، ويرجع في المعنى إلى الأول"[1].

ومن أمثلة ما ساقه الشراح في تفسير المفردة اعتمادا على عادة العرب في استخدامها، أو على ما تصل من أحوالهم، ما أورده المرزوقي في شرحه لقول زفر بن الحارث الكلابي: (الطويل)

فلمّا فزغنا النّبْع بالنّبْع بعضُه ببعضٍ أبَتْ عيدانُه أن تكسّرا

"الشاعر اعترف بأن أصل أولئك نبعٌ، كما أن أصلهم نبعٌ، النبع خير الأشجار التي يتخذ منها القسي وأصلبها، كما أن الغرب شرها وأرخاها، فجعلت العرب تضرب المثل بهما في الأصل الكريم واللئيم، حتى إن بعض المحدثين قال: (المنسرح)

فيهنّ أبْدَى الوفيّ صَفْحَتَهُ وهنّ نَبْعُ القِفَارِ من غَرَبِهْ

فيقول: لما قرعنا أصلهم بأصلنا أبت العيدان من التكسر. والمعنى أن كلامنا أبى أن ينهزم عن صاحبه. فالعيدان مثلٌ للرجل، والنبع مثلٌ للأصل"[2].

- وقد يستعين الشارح ويستشهد في إطار بحثه المعجمي باللمحات التفسيرية لأصحاب اللغة؛ فـ (المنيح) في قول عروة بن الورد: (الطويل)

مُطِلاً على أعدائه يزجُرونَهُ بمناختهم زجْرَ المنيحِ المُشَهَّرِ[3].

"قال الخليل: هو الثامن من القداح. وقال أبو عمرو: المنيح والسفيح والوغد قداحٌ لا انصباء لها، وإنما يكثر بها القداح فهي تجال أبداً، وقال الأصمعي: المنيح الذي لا يعتد به"[4].

- وفي أثناء ذلك قد يورد الشارح اختلافات العلماء فيفصل بينهم ويرجح بين أقوالهم، من ذلك مثلا ما أورده المرزوقي في تفسير لفظة (أبزى) في قول بعض بني فقعس (مرة بن عداء): (الطويل)

فهلاّ أعدّوني لبيْتي تكأفوا إذا الخصْمُ أبزى غابلُ الرأس أنكبُ

---

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (2 / 1514).
(2) نفسه: (1 / 156).
(3) نفسه: (2 / 423)، وقول: ولكن تتغير الوضيع الوجه، الذي يبذل جهده ويبتذل نفسه في طلب غناه، ويقصر سعيه على ما يبلغ به عذره ليشرف على أعتقه غنياً ومغيراً، وهم يزجرونه حالاً بعد حال، ويكر هو عليهم وقتاً بعد وقت، يزجر هذا القدح في خروجه ومع ذلك يرد.
(4) نفسه: (2 / 423).

"قوله: تناقدوا دعاء، وقد اعترض بين أول الكلام وآخره، ولكنه أكد مايقتضيه فصلح لذلك. يقول: هلا جعلوني عدة لرجلٍ مثلي، فقد بعضهم بعضاً وقد جاءهم الخصم متأخر العجز مائل الرأس منحرفاً ... وقال الأصمعي: البزي: تأخر العجز. وقال غيره: هو إشراف وسط الظهر على الإست . والبيت يشهد للأصمعي"[1].

- وفي بعض الأحيان كان يكتفي بأن يورد اختلافاتهم دون تفصيل أو ترجيح بين أقوالهم، كما جاء في تفسير لفظة (تنهسه) في قول عاتكة بنت عبد المطلب: (مجزوء الكامل)

فيـــــــــه قَتْلَـــــــــا مالِقَـــــــــا قَـــــــــمْزاً وأَنْـــــــــلَفَهُ زِعاعُـــــــــهْ [2].
وَمُجَـــــــــدَّلاً غادَرْتَـــــــــهُ بالْقَـــــــــاعِ تَنْهَـــــــــسُهُ ضَبـــــــــاعُهْ [3].

"والنهس: أخذ الشيء بمقدم فيك. ويروى: تنهشه بالشين معجمةً. وكان الأصمعي يقول: النهس والنهش سواء، وهو أخذ اللحم بالفم. وخالفه أبو زيد فقال: النهس بالسين أخذك الشيء بمقدم فمك. والضمير في قوله ضباعه يعود إلى القاع"[4].

وقول آخر في ابنٍ له (محرز بن المكعبر): (الطويل)

لا تَعْـــــذِلي فـــــي خَنْـــــدَجٍ إِنْ خَنْـــــدَجَا وَلَيْـــــثِ عِفِـــــرِّينٍ لَـــــذِيذٍ سَـــــوَاءُ [5].

"يخاطب لائمة عذلته في التوفر على ابنه خندج واختصاصه إياه واستخلاصه ... فيقول: لا تلوميني في أمر خندج، إن خندجاً وليث هذه المأسدة متساويان عندي. وقد قيل في ليث عفرين: إنها هي التي تصيد الذئاب وتبأ، فشبهه في كيده ومكره به، وقد وصف الخبيث المنكر بالعفر والعفرية وعفرني، ويقال أيضاً للأسد عفر وعفرني. وقيل هو أشد عفارة، واستعفر فلانٌ. وحكى الأصمعي أن ليث عفرين دابة كالحرباء يتحدى الراكب ويضرب منبه. وقيل عفرين: موضع نسب إليه، وقيل عفرين: فعلين من العفر، وهو التراب، لأن عادة الأسد أن لا يصيب من فريسته حتى يعفره، يشهد لذلك قول الأخر في صفته: (الطويل)

ولا نالَ قَطُّ الصَّيْدَ حتَّى تَظَرَّجا

وذكر بعضهم أن ليث عفرين كقولهم: ليث ليوث، لأنه يقال للمنكر الداهية عفرٌ، ويوصف به الأسود والرجال. ويكون على هذا عفرين جمع جمع السلامة كالأنورين، ومر بي أن قولهم ليث عفرين يستعمل في المدح والذم وسواء: مصدرٌ في الأصل وصف به"[6].

فالشارح - في كل ما سبق - "يخضع تحليله المعجمي لمقولات صرفية متواضع عليها يسعى إلى أن يتعرف من خلالها على الوحدة المعجمية في انتمائها المقولي"[7].

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. (١ / ٢١٤).
(٢) الزعاع: سفلة الناس وسقاطهم. وقال الخليل: الزعاعة: الرجل الذي لا لوذ له، وسمه زعاع القاع.
(٣) المجدل: المصروع على الجدالة، وهي الأرض. والقاع: المستوى من الأرض.
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ٧٤٣).
(٥) ذكر الخليل أن خندجا في اللغة رملةٌ طيبة تنبت الوأا من السلك.
(٦) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (١ / ٢٦٩).
(٧) د/أحمد الوقراني: شرح الشعر عند العرب، من الأصول إلى القرن ١٤ هـ / ٢٠ م "دراسة معاجمية"، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط ١، ٢٠٠٩ م، ص ٦٧.

- وفي إطار سعي الشارح إلى تحديد دلالة المفردة بكل دقة، فقد يتوقف عند مفردة ما ويسوق معانيها المتعددة مع إيراد الشواهد المختلفة.

فقد توقف النمري عند كلمة (ستر الله) في قول آخر: (الطويل)

وَبَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا غَشِيَّةُ أَزْلَامِ الكِنَاسِ رَمِيمُ

قائلا: ""ستر الله" ها هنا، الإسلام، وما حجز بينه وبين الفجور، ومن ظن أن "الستر" ها هنا ستر البيت الحرام وغيره، فقد أخطأ ..... وهذا كقول زهير: (الكامل)

الْسِتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

فالستر، ها هنا، الحياء وما حجز من الفاحشات لا غير"[1].

- وقد ينكر الشارح مترادفات الكلمة التي تحمل الدلالة نفسها:

فـ (اسبطرت) في قول عمرو بن معد يكرب: (الطويل)

وَلَمَّا رَأَيْتُ الخَيْلَ زُوراً كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ زَرْعٍ خَلْيَتْ فَاسْبَطَرَّتِ

بمعنى "امتدت، والسبطر والسبط بمعنى واحد"[2].

- وقد يشير الشارح في سياق تفسيره للفظة إلى سبب تسميتها باسمها، فالحجاز سمي بذلك "لأنه يفصل بين الغور والشام وبين البادية"[3]، "وإنما سمي الثقل عبئًا لأنه من عيبات المتاع أعوزه عبئًا، ثم يسمى المتاع عبئًا، فهو كالنقض والنقض. وكثر استعماله حتى تسمحوا به فيما يدخل من الثقل على القلب ولا يحمل على الظهر"[4]، والمطية عند النمري هي "ما امتطيته، أي ركبت مطاه، وهو الظهر، يراد به البعير، ويقال: بل سميت "مطية"، لأنه يمطى عليها في السير، أي يمد"[5].

- وفي سياق توضيحه لمعنى اللفظة ورفع الغموض والإشكال عنها فإن الشارح يلفت النظر إلى عكس معناها أو مضادها، كما جاء مثلا في قول خطاب بن المعلى: (السريع)

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَامِخٍ عَالٍ إِلَى خَفْضِ

"يقول للدهر حكمٌ معروفٌ، وطريقٌ مألوفٌ، في رفع الوضيع، وحط الرفيع، فلجرى حكمه علي، وأنزلني عن رتبةٍ عاليةٍ إلى منزلةٍ منخفضةٍ، والخفض: ضد الرفع، وهو مصدرٌ وضع موضع المفعول. يريد إلى مكان منخفض"[6].

---

(١) النمري: معاني أبيات الحماسة: ص ١٨١، الحماسية رقم / ٥٢٢.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ١٥٧).
(٣) نفسه (٢ / ١٤٩٩).
(٤) نفسه: (٢ / ٨٢٨).
(٥) النمري: معاني أبيات الحماسة: ص ٢١٢ ، ص ١٤٠.
(٦) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٢٨٥).

- وقد ينقصي الشارح دلالة اللفظ على مختلف الروايات التي جاء بها لما في ذلك من أهمية بالغة في فهم الشعر وتحديد المعنى وتوضيحه، وهذا أمر سبقت الإشارة إليه.

فقد التفت الشراح إلى اختلاف دلالة اللفظ وبالتالي المعنى الإجمالي للبيت لاختلاف الرواية في قول أبو حزابة التميمي: (البسيط)

خَـاضَ الـرَّدَى فِـي العِـدَى إِذْنًا بِمَنْـصُلِهِ ... وَالخَيْـلُ تَفْلُـكُ ثِنْـيَ الصَّـوْتِ بِـالنُّجُمِ

"يقول: دخل قديماً في مكتنفة أعدائه الهلاك بسيفه، لا ينقبض ولا يحجم، والخيل عراض على لجمها، تعلكها في أثناء الموت. والعلك: المضغ، ويقال: في لسانه عولك، أي بمضغه ... يقال: ثنيت الشيء ثنيا، ثم يسمى المثني ثنيا ... كأنه قال: والخيل تمضغ متنى الموت، أي مضاغه، ملجمة. وهذا حسن. وبعضهم روى والخيل تعلك تن الموت، وائن: حطام اليبس، والمختار ما ذكرته. وفي هذه الطريقة قول الآخر: (الكامل)

خُـضْنَا إِلَيْـهِ الـمَـوْتَ فِـي أَيْمَانِنَـا ... خَمْـرُ الـكُـفَّارِ جُلُّـونَهُ الأَرْوَسَ "[1]

- والشواهد والأمثلة التي يأتي بها الشارح بغرض رفع الإبهام والغموض عن ألفاظ شعراء الحماسة، قد يستطرد فيتعرض لبعض ألفاظها بالتحليل والتفسير، ويسوق عليها الشواهد المختلفة أيضا.

ولنتأمل - مثلا - صنيع ابن جني في تفسير قول عتبة بن بحير المازني: (الطويل)

فَقَـالُوا : غَرِيـبٌ طَـارِقٌ طَوَحَـتْ بِـهِ ... مَثُـونُ الفَيَـافِي وَالخُطُـوبُ الطَّـوَائِحُ

"ويروى: طرحت له، والطوارح، وكان قياسه: المطارح، وذلك أنه جمع مطوح، وتكسير مفعل: مفاعل بحذف أحد العينين وتقر الميم في أوله، لكنه جاء على حذف الزيادة من فعله لكأنه جاء على طاح فهو طائح، فكسر طائح على طوائح كقول الله تعالى: "وأرسلنا الرياح لواقح" (الحجر / ٢٢)، أي: ملاقح، لأنها تلقح السحاب. وقيل: لا، بل هي تبقح أي تجيء بالماء، فكأنها هي الحامل"[2].

ولم يقتصر جهد الشراح عند مجرد الكشف عن غريب الألفاظ والمعاني، بل تجاوز ذلك ليأخذ شرح معاني الألفاظ عند بعض الشراح بعدا تأويليا، خاصة وهم "علماء موسوعيو العلم واثقافة، غزيرو التأليف والتصنيف، جمعوا بين علوم شتى، وثقافات عدة، وكانت حصيلتهم رائعة في مختلف العلوم الدينية والدنيوية، والأفكار الكلامية والفلسفية، إلى جانب اهتمامهم الواسع ، وشغفهم العظيم بعلوم اللغة والأدب، ومحصولهم الوفير من الشعر العربي على اختلاف عصوره ومذاهبه ، وموضوعاته، وتعدد شروحه وتباين اتجاهاتها ومناهجها"[3]، مما انعكس على شروحهم التي "أظهرت مدى تعمقهم في الفهم والتفكير"[4]، فالشارح منهم في سبيل تفسيره الألفاظ "يقلب اللفظ تقليبا دقيقا .. وينقله في أحيان كثيرة من وضعه الحقيقي إلى وضع مجازي .. وينكر معانيه المختلفة حسب أوضاعه في الكلام"[5]، في سبيل الوصول إلى المعنى المراد وتحليله وتوضيحه.

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (٢ / ٦٨٨ ، ٦٨٩).
(٢) ابن جني: التنبيه على شرح مشكل أبيات الحماسة: ص ٣٨١، حماسية رقم (٣٣٣).
(٣) د/أحمد جمال العمري: شروح الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٨١ م، (١ / ٢٩٨).
(٤) نفسه: (١ / ٢٩٩).
(٥) نفسه: (٢ / ١٤٣).

ولقد أخذ هذا التأويل أشكالاً عدة[1] يمكن إيجازها في الآتي:

أ- تقصي الدلالة على المراد دون تعيين أو ترجيح، مما يشير إلى أن معنى البيت يحتملها جميعاً، كما في (القوانس) في قول حسيل بن سحيم: (الطويل)

بِمُطَّرِدٍ لَدْنٍ مِنَ الخَطِّ فَيْشَةٍ ... وَذِي رَوْنَقٍ عَضْبٍ يُقَدُّ القَوَانِسَا
وَبَيْضَاءَ مِنْ نَسْجِ ابْنِ دَاوُدَ دَرْعَةٍ ... تَخَيَّرْتُهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ الغَلَابِسَا

الذي فيه "القوانس: أعلى البيض؛ وقوانس الفرس منه، وهو العظم الذي تحته العصفوران. هكذا قال أبو عبيدة. وقال الأصمعي: هو والعصفوران سواء"[2].

ب- الدلالة على المراد باستقصاء وجوهه المحتملة مع التفصيل والاختيار دون تعليل؛ فـ (قريع الدهر) في قول تأبط شرا: (الطويل)

فَذَاكَ قَرِيعُ الدَّهْرِ مَا عَاشَ خَوْلُهُ ... إِذَا مَسَدُّ مِنْهُ مَنْجِزٌ جَاشَ مَنْجِزُ

"يحتمل وجهين: يجوز أن يكون في معنى مختار الدهر، ويكون من قرعت الشيء أي اخترته وخصصته بقرعي، ويقال هو قريعهم وقريعتهم وقريعيهم بمعنى واحد. ويجوز أن يكون بمعنى من قرعه الدهر بنوائبه حتى جرب وتبصر. ويكون قريع في الوجهين فعيلاً في معنى مفعول. ولا يمتنع أن يكون المراد بقريع الدهر فحل الدهر، ويكون في هذا الوجه قريع في معنى فاعل، لأنه يقرع الناقة أي يضربها. وما تقدم أحسن"[3].

و(النجوم) في قول بعض بني أسد: (الوافر)

وَلَوْ أَنِّي أَشَاءُ لَكُنْتُ مِنْهُ ... مَكَانَ الفَرْقَدَيْنِ مِنَ النُّجُومِ

"يقول: لو شئت لأطلقت عنان فرسي فنجوت، وكنت بحيث لا يوصل إليّ، ولا يقدر عليّ. وقوله "مكان الفرقدين من النجوم"، قال قوم: أراد بالنجوم منازل القمر ومسيرها في المجرى، والفرقدان بمعزل عن المجرى وعن القمر، ولا يلتقي أبدًا الفرقدان والقمر.

قال أبو رياش رحمه الله يقول: لو شئت لكنت مكان الفرقدين من صاحبي، وإنما قال: "من النجوم"، فميز بها، لأنه يقال لولد البقرة الوحشية "فرقد"، قال طرفة: (الطويل)

فَمَنْ لَامَنِي مِنْ عَوْزَةٍ أَمْ لِرِبْيَةٍ

وهذا القول أحب إليّ"[4].

---

(١) نقلاً عن: د/مصطفى عليان عبد الرحيم: تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦ م، ص ١٧٩ : ١٨٠ خلا الشواهد، وانظر كذلك: د/السيد حمدان: القصايا البلاغية والنقدية في شروح المتنبي على شعر أبي العلاء، ٢٤٩ : ٢٥٦.

(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٥٦٩).

(٣) نفسه. (١ / ٧٦).

(٤) التبريزي: معاني أبيات الحماسة: ص ٥٠ ، ٥١، الحماسية رقم / ٣٩.

ج ـ استقصاء الوجوه المحتملة مع التفصيل والاختيار المعلل، هذا الاختيار مع التعليل اعتمدوا فيه على مقاييس مختلفة، أهمها:

ـ الاعتماد على المعرفة بسياق النص ووحدة الأسلوب؛ فنكر (الرداء) في قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، ويقال إنه للسموءل بن عاديا اليهودي: (الطويل)

إذا الغـزة لـم يـدنَس مـن اللُـؤم عِرضُـهُ ... فكـلُّ رِداءٍ يرتديـهِ جميـلُ

"ها هنا مستعار، وقد قيل: رداء الله رداء عمله، فجعل كنايةً عن مكافأة العبد بما يعمله، أو تشهيره به، كما جعله هذا الشاعر كنايةً عن العمل نفسه. وتحقيقه: فأي عملٍ عمله بعد تجنب اللؤم كان حسنًا ... وليس هنا من قول عمرو بن معد يكرب. (مجزوء الكامل)

لـمـن الجمـالُ بمئـزرٍ ... فـاعلم وإن رُدِيـت بُـردا

فبعتقد أنه يريد بالرداء الثياب بسبيل، فاعلمه"[1].

ـ ومنها الاعتماد على صنعة الشعر ؛ كما نلاحظ في تفسير (من) في قول زياد الأعجم: (الطويل)

ومـن أنـتـم إنّـا نسينا مـن أنـتـم ... وريحكُـم مـن أيّ ريـح الأعاصـر

فيجوز فيها أن تكون بمعنى (الاستفهامية) وكذلك (الموصولية)؛ إلا أنها للأولى أقرب حريًا على عادة العرب في صناعة الشعر، يقول ابن جني. "أجرى نسينا مجرى نقيضه علمنا وعرفنا فاستعمل الاستفهام بعدها، وعلقه عنه، والعرب تجري الشيء مجرى نقيضه كما تجريه مجرى نظيره، ألا تراهم قالوا: شبعان كما قالوا: جوعان، وريان كعطشان، وجهل كعلم، ولؤم ككرم، وقالوا. كثر ما يقول كتولهم: قلما يقص؛ وهو كثير جدًا. ويجوز أن يكون من موصولة أي نسينا الذي هو أنتم كقراءة من قرأ (تماما على / الذي أحسن) والأول الوجه ليطابق الاستفهام قبله، هكذا موجب صناعة الشعر"[2].

هذا التفصيل والاختيار ـ معلل كان أم غير معلل ـ كان من الشراح "ثقة ظاهرة بمعرفتهم لدلالة الألفاظ وبصرهم بمواقعها، وحسهم بما تكن بمعنى منها ..."[3]، الأمر الذي يمكننا الوقوف عليه بسهولة من خلال ما أوردناه من أمثلة.

هـ ـ مناقشة الدلالات الواردة من شرح المعاني مع التوجيه والتفضيل. وقد سبق أن أوردت عديد الأمثلة في أثناء الحديث عن المعاني المعجمية.

أما التحليل فيقصد به "تعمق الإشارات الغريبة والبعيدة التي يجوس خلالها معنى الكلمة"[4]، وهو أظهر ما يكون عند النمري، من ذلك تعليقه على بيت زفر بن الحارث: (الطويل)

منـيناهُم فأسـرعـوا ... ولكـنّهم كـانوا على الغـوْبِ أصبـرا

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ١١٠ ، ١١١).
(٢) ابن جني. التنبيه على شرح أبيات الحماسة. ص ٣٧٧، الحماسية رقم ٣٢٩.
(٣) د/ سعيد عبادة أبو العلاء الناقد الأدبي. دار المعارف بمصر. ط١، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م، ص ٢٧٦.
(٤) د/مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري: ص ١٨١.

"هذا البيت يحتاج إلى فضل تأمل ، فإنه لم يرد بقوله: "على الموت أصبرا" إلزارًا بالشجاعة لهم، ولكن يقول: استحر القتل فيهم فصبروا عليه . فهذا وإن كان مدحًا لهم، فالذي فعل بهم هذا أولى بالمدح، وأحرى أن ينسب إليه الصبر، ولو أن فئة قاتلت فئة، وكان القتل في إحداهما أعم، لكان لنا أن نقول: هؤلاء أصبر على الموت . والغرض أن تلك الفئة أنتك وأشجع.

فإن قال قائل: كيف يسوغ أن يدعى أن القتل فيهم أعم، بعد أن ساوى بينهما في قوله: "لقيناهم كلنا سقونا بمثلها" ؟ قيل له: "الكأس" ها هنا القتل والموت، فيقول: قتلوا منا وقتلنا منهم، كقولك: "ضربت وضربت"، فلا يدرى أي الضربين أكثر. فلما قال: و"لكنهم أصبر على الموت"، علم الغرض وفهم القصد"[1].

"ومن التحليل: تخليص المعنى، خاصة إذا كان اللفظ من المشترك الذي يدل على معنيين فأكثر دلالة متساوية"[2]، كلفظ (المنيح) في بيت عروة بن الورد: (الطويل)

فظلا على أعقابه يزجرونه بمناخيهم زجر المنيح المشهر

إذ أن "المنيح" ها هنا، قدح مشهور بالفوز، يستعار فيضرب به، ثم يرد إلى صاحبه، و"المنيحة"، المعارة، ولذلك سمي "منيحا"، وهو "فعيل"، في تأويل "مفعول"، قال عمرو بن قميئة: (الطويل)

يغوث بأنزاق الجبال منيحها

و"المنيح"، في موضع آخر، قدح تكثر به القداح لا غنم له، ولا غرم عليه، وفيه يقول الشاعر: (البسيط)

تثر فيهم بمناخ الخط ضاجعة كز العليض منيحا بين أقسام

و"المنيح"، لا حظ له، وكلما برز رده شبه تكرير الطعن به.وقوله: "يزجرونه بساحتهم"، أي: يغزوهم في عقر دارهم وحر بلادهم، فهو أبدا يزجر ويصاح به، كما يزجر القدح إذا ضرب به"[3].

وقد يكتفي الشارح بالإشارة ـ مباشرة ـ إلى المعنى الواحد المقصود، ويعبر عن هذا بقوله: "والمعنى ها هنا"، أو "المراد ها هنا".

من ذلك ـ مثلا ـ تفسير التبريزي للفظ (الإثمد) في قول دريد بن الصمة بن الحارث بن معاوية: (الطويل)

وتفرج منه غمرة القوم مصدقا وطول السرى درئ غضوب مهند

بقوله: "أراد بالإثمد ها هنا، الظلماء ..."[4].

وكذلك تخليص المعنى إذا كان اللفظ المفسر من الأضداد، مثل لفظ (الجلل) في قول الحارث بن وعلة الذهلي الوطلة: (الكامل)

فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمي

---

(١) التبريزي: معاني أبيات الحماسة: ص ٤٠، ٤١، حماسية رقم (٢٨)، وانظر أيضا: ص ١٣٢، حماسية رقم (٣٢٠).
(٢) د/مصطفى حليفي: تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس: ص ١٨٢.
(٣) التبريزي: معاني أبيات الحماسة: ص ٨٨، ٨٩، حماسية رقم (١٤٧).
(٤) نفسه: ص ١٢١ حماسية رقم ٢٧٤.

"و "الحال" هنا العظيم وقد يكون الحقير، وهو من الأضداد"[1].

ولفظ (الجون) هو الآخر من الأضداد، فهو يعني الأسود في قول ملحة الجرمي: (الطويل)

وَبَاتَ الحَيُّ الجَوْنُ يَنْهَضُ مُقْيِمًا كَنَهْضِ الْمَذَاكِي قُيِّدَهُ النُّوَعِبُ النُّفْضِ

" والجون ؛ الأسود هنا، وجعله كذلك لا رتوائه وكثرة مائه "[2].

"ويلحق بالتحليل ما نص عليه الشراح من طريقة العرب في استخدام بعض الألفاظ"[3]. والشواهد على ذلك كثيرة أكتفي بما سبق أن أوردته منها[4].

أما التوجيه فإنه "يقصد إلى الإبانة عن المعنى المحدد والدقيق للكلمة، وتوجيه معنى الشاعر في ضوئه سلامة أو عدم صحة"[5]. فقد استخدم أبان بن عبدة بن الغيار لفظ (البيض) التي بمعنى السيوف استخدامًا غير دقيق، في قوله: (الطويل)

بِبِيضٍ خِفَافٍ مُرْهَفَاتٍ قَوَاطِعٍ يُدَاوِدُ فِيهَا أَسْرُهُ وَفَوَائِتُهُ

لأن "داود عليه السلام إنما سرد الدروع لما لين الله الحديد له معجزةً لا السيوف ... وقيل فيه إنه قدر أن الأمر في نسبة السيوف والدروع إلى داود على سواء، لجهله"[6].

ومن التوجيه كذلك ما قام به الشراح من تصويب ما ذهب إليه غيرهم من الشراح واللغويين السابقين "لما وقعوا فيه من خطأ في تفسير بعض ألفاظ البيت على نحو يؤدي إلى اضطراب المعنى"، ويبدو ذلك واضحًا عند شرح لفظة (الوفر) في قول الأشتر النخعي: (الكامل)

بَقِيتُ وَفْرِي وَانْحَزَفْتُ عَنِ الْعُلَا وَلَقِيتُ أَضْيَافِي بِوَجْهٍ عَبُوسِ

يقول النمري: ""الوفر"، المال. وفي كتاب الديمرتي: "الوفر، ها هنا شعر البدن"، وهذا يغلط، لا الوفر شعر البدن، ولا ذا موضعه إن كان لغة. وهذا قسم لا إخبار"[7].

هذه هي أهم المسائل التي عرض لها الشراح في أثناء بحثهم المعجمي في الألفاظ، وهي تعكس مدى ما يتمتع به الشراح من فهم واع مدرك لأسرار الكلام، مكنهم من التعبير عن آرائهم وتوجيهاتهم بأسلوب رصين مشرق، وعبارات دقيقة، وألفاظ مختارة منتقاة.

---

(١) الأعلم الشنتمري: تحلي هرر المعلق، ص ٣٢٠.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (٢ / ١٨١٠).
(٣) د.مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس، ١٨٢.
(٤) نفس الرسالة ص ٧٦ وما بعدها.
(٥) د.مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ١٨٢.
(٦) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٦٣٥).
(٧) النمري: معنى أبيات الحماسة ص ٤٢، الحماسية رقم (٢٥).

ثانيًا : تذوق ونقد لألفاظ شعراء الحماسة وتراكيبهم:

توسع شراح الحماسة في تناول الألفاظ بالشرح والتحليل، حتى شمل إلى جانب الألفاظ التراكيب التي وردت في نصوص الديوان، والكشف عما تنطوي عليه من دقائق تعبيرية، وتذوقها والحكم عليها من خلال:

١ ـ التأريخ لبعض الألفاظ والتراكيب[١]:

وهي لون من الإحالة المرجعية، يلجأ إليها الشارح أثناء تناوله للفظ أو تركيب معين، بغرض تبسيطه، واستنباط ما به من دلالات. ومن التراكيب والمفردات التي استوقفت الشراح، تلك "التي كان يستخدمها القدماء ثم أقر الشعراء الاستخدام نفسه بعد الإسلام واستعملوها على حالها"[٢]، كعادة القدماء ـ مثلا ـ في ذكر (الهامة والصدى). ولننظر في تعليق المرزوقي على ذكر (الهام) في قول مسلم العبسي: (الطويل)

سَلامٌ بنِي عمرٍو على حيثُ هامُكُمْ ... جُعَالُ الثُّوِيِّ والقَتَا والسَّتَوْدِرِ
أُولاكَ بَنُو خَيْرٍ وشَرُّ جَنِيبُهَا ... جَمِيعًا ومعروفٌ أَلَمَّ ومُنْكَرِ

"وذكر الهام على عادة العرب، في زعمهم أن عظام الموتى تصير هامة تطير"[٣]، إذ أن "العرب تزعم أن الرجل إذا قتل فلم يثأر به، خرج من رأسه طائر يسمى الهامة والصدى، ويزعم بعضهم أنه يتولد من الدماغ، فلا يزال يصوح: اسقوني، اسقوني إلى أن يثأر، وقال ذو الإصبع العدواني: (البسيط)

يَا عَمْرُو إلا تَدَعْ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي ... أَضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ الهَامَةُ اسْقُونِي

فهذا متعارف عليه عند العرب، الا أن الدين يبطله، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا هامة ولا عدوى ولا صفر"[٤].

وذكر (الصدى) في قول توبة: (الطويل)

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ ... عَلَيَّ وَدُونِي تُرْبَةٌ وَصَفَائِحُ
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البَشَاشَةِ أَوْ زَقَا ... إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ القَبْرِ صَائِحُ

يقول النمري: "قوله: "لسلمت تسليم البشاشة"، أي لسراني سلامها ورد إلي الروح فرددت السلام عليها، أو رده عليها صداي، إن لم تنشر فارده أنا. و"البشاشة"، الطلاقة. و"الصدى"، ذكر البوم. والعرب تزعم أن الرجل إذا قتل خرج من رأسه طائر يصيح "اسقوني، اسقوني"، إلى أن يدرك ثاره. وهذا يبطل على ما ذكرت لك قبل"[٥].

وهناك تراكيب على عادة العرب في الاستخدام ووردت في أشعار الحماسة، مثل وصف الفاعل والمفعول بالمصادر، كما نلاحظ في بيت سعد بن ناشب بن مازن بن عمرو بن تميم: (الطويل)

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا

---

(١) د/السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح القدماء على شعر أبي العلاء، ص ٢٥٧.
(٢) نفسه: ص ٢٥٧.
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٩٩٠).
(٤) النمري: معاني أبيات الحماسة: ص ١٦٦، ١٦٧، الحماسية رقم (٤٦٣)، وانظر أيضًا: ص ١٤٢، حماسية رقم (٣٥٢).
(٥) نفسه: ص ١٧٧، الحماسية رقم (٥١٩).

"قوله: "ألقى بين عينيه عزمه"، أي جعله بمرأى منه لا يغفل عنه ... والمعنى أنه إذا هم بالشيء جعله نصب عينيه إلى أن ينفذ فيه ويخرج منه، ويصير في جانب من الفكر في العواقب ... وسمي المعزوم عليه عزما على عادة العرب في وصف الفاعل والمفعول بالمصادر"[1].

٢ ـ تأصيل التعبير وتحقيقه[2]:

يعمد الشراح أيضا إلى تاريخ التعبير وتأصيله، في محاولة للربط بين مأثور التعبير وواقعه، بغرض "إماطة اللثام عن مقاصد الشاعر ومرامية، واستكناه ما قد تنطوي عليه مشاعره"[3].

وتزخر شروح الحماسة بالكثير من التوضيحات لما يعتري الألفاظ والتعبيرات من تغييرات، يلجأ إليها شعراء الحماسة تبعا لأذواقهم وحالتهم النفسية ومذهبهم الفني، فجاءت تعليقات وتبريرات الشراح ـ أكثرها ـ متوافقة مع ما ذهب إليه الشعراء، فكثيرا ما نجد من الشراح من "يتلمس لهم الأعذار ويدافع عنهم، وقد يخترع لهم الأسباب الفنية والنفسية التي تشفع لهم قصورهم وتمسح تقصيرهم، ويجوز لهم الاحتمالات التي قد تخرجهم من نطاق الضعف، ومصايد الزلل كما أنه لا يدافع عن الشعراء نظريا ـ بالقول ـ بل عمليا وفعليا مستشهدا مجوزا لما يمكن أن يتم ويقال في هذا الصدد، ثم يقدم الحيثيات الدفاعية التي تبرئهم من هذه المآزق الفنية التي وقعوا فيها"[4].

ولعل "حرص الشارح على التذكير بالقاعدة التي يزكيها قول "الحماسة" من أهل اللغة وإعجابه بالشاعر المحدث وهو يجترئ على تلك القاعدة أوقعاه في التأول، إما محشد ما اتفق له من قرائن تشهد على براعته في الحجاج والمماحلة، وإما بتمحل أعذار واهية مصطنعة قائمة على الشك والتخمين"[5].

هكذا دافع الشراح عن شعرائهم، وخلصوهم من مآزقهم، وما خالفوا فيه عرف اللغة والنحو، فنهضت قرائن الحجاج لدى الشراح على آلية القياس حينا، والسماع حينا آخر، فما لم يصح على أحدهما صح على الآخر، وغاية تلك المراوغة هي "تبرئة ساحة الشاعر من الخطأ"[6]، وقد سلك الشراح في سبيل ذلك عدة سبل، عمدوا فيها إلى وصف المعيار ثم سوق الاستعمال ثم تذييل هذا أو ذاك بالتبرير، والتي يمكن استعراضها في[7]:

أ ـ السماع:

يلجأ الشارح إلى القرينة السماعية التي يزكيها التواتر؛ لتبرير ما ذهب إليه الشاعر مما قد يظن أنه مخالف القياس اللغوي، مثل الإبقاء على ما حقه الحذف، في قول بعض شعراء بلعنبر، واسمه قريط بن أنيف (البسيط)

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

يقول التبريزي: "والبرهان البينة قال بعضهم برهان فعلان من البره وهو القطع، وقال أبو الفتح: برهان عندنا فعلان كقرطاس وقرنفل وليست نونه زائدة يدل على ذلك قولك: برهنت له على كذا، أي أقمت الدليل

---

(١) المرزوقي. شرح ديوان الحماسة (١ / ٧٣).
(٢) د/أسيد حمدان. القضايا البلاغية والنقدية في شروح التساء على شعر أبي العلاء، ص ٢٥٩.
(٣) د/عبد الله عبد الرحيم عسيلان. حماسة أبي تمام وشروحها، دراسة وتحليل، ص ١١٠.
(٤) د/أحمد حماد المصري. شروح الشعر الجاهلي، مدارج الشراح (٢ / ٢٢٥).
(٥) د/أحمد الزواوي. شرح الشعر عند العرب، ص ١٨٥
(٦) نفسه ص ١٨٦.
(٧) عمال القضايا البلاغية والنقدية في شروح التساء على شعر أبي العلاء، ص ٢٥٩ ـ ٢٧٣. العناصر فقط خلا الشواهد والتعليق عليها.

عليه، ونظيره دهقان هو فعلال بدليل قولهم: تدهقنت وليس في الكلام تفعلن وقد كان القياس في نون برهان ودهقان أن تكونا زائدتين حملاً على الأكثر، ولكن ورد السماع بما أرغب عن القياس، فترك لذلك ومعنى البيت: أنهم إذا دعوا إلى الحرب أسرعوا إليها غير سائلين من دعاهم لها ولا باحثين عن سببها؛ لأن الجبان ربما تعلل بذلك فتباطأ عن الحرب"[1].

ب - القياس:

يلجأ الشارح إلى القياس عندما تعوزه القرينة السماعية، وذلك "إما باعتباره مبررا في حد ذاته .. وإما بعقد مقارنات بين الصيغة المنكرة سماعا وصيغ أخرى يجمعها بها القياس"[2]، مما قد يظن احتراء على قاعدة اللغة، مثل وضع المستقبل موضع الماضي، في قول جابر بن حريش: (الكامل)

ولقد أرانا يا سُمَيَّ بخائلٍ ... نزعى القَرِيَّ فنأمنا فالأمْئَرا

يقول المرزوقي: "قوله " أرانا" حكاية الحال، وما يستمر ويتصل من الأفعال إذا أريد فيه الإخبار عن الماضي قد يؤتى بلفظ المستقبل فيوضع موضع بناء الماضي، على ذلك قوله: (الكامل)

ولقد أمُرُّ على اللئيم يسُبُّني ... فمضيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يعنيني

ألا ترى أنه قال أمر، ثم قال لمضيت ثمت قلت. كذلك هذا قال ولقد أرانا، ثم جاء في آخر الأبيات قال: إذ لا يخالف حدوجنا قذف النوى"[3]. وفي بعض الأحيان يتمادى الشارح في طريق الاعتذار لشعرائه، فيتكلف هذا القياس، تأولا لذلك الزلل من هؤلاء الشعراء وتدريره؛ يتضح هذا بالمثال التالي الذي يقول فيه التبريزي عن بيت نوبة: (الطويل)

ولَوْ أنَّ لَيْلَى في السَّمَاءِ نَصَبْتُهَا ... بِطَرْفِي إلَى لَيْلَى العُيُونُ الفَوَاتِحُ

" "الكشاحة"، العداوة، و"كواشح" "فواعل"، وهذا جمع لم يأت للمذكر إلا في أحرف شاذة منها: "فارس وفوارس، وهالك في الهوالك"، إلا أنه جمعه على لفظ العيون وتأنيثها، لا على معناها في هذا الموضع وتذكيره "[4]. وهذا تكلف من الشارح في القياس حتى يلتمس للشاعر عذرًا في استخدام هذا الجمع على هذه الصيغة، ولعل هذا ما قصده بقوله: "وإن أراد بالعيون التي هي الرقباء، نساء يراقبنه، أو عيونًا على الحقيقة، كان حسنًا، ولم يحتج إلى تمحل حجة لفواعل"[5].

أما إذا خالف الشاعر القياس فإن الشارح يلتمس له الأعذار والمبررات ، ومن أهمها:

- الضرورات الشعرية:

تعد الضرورة الشعرية من المصطلحات التي لقيت عناية من اللغويين أكثر من النقاد والبلاغيين، فذكرها ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) دون أن يسميها [6]، وذكرها ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ)[7]،

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة. (١ / ٥)، وانظر. ابن جني: شرح مشكل أبيات الحماسة: ص ٢٠، حماسية رقم (١).
(٢) د/أحمد الوبري: شرح الشعر عند العرب، ص ١٨٥.
(٣) التبريزي: شرح ديوان الحماسة. (١ / ٥٩٢ ، ٥٩٣).
(٤) التبري: معاني أبيات الحماسة: ص ١٧٧، ١٧٨، الحماسية رقم (٥١٩).
(٥) نفسه: ص ١٧٨، الحماسية رقم (٥١٩).
(٦) انظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق/أحمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٨٢ م، ص ١٠١.
(٧) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق د/مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، سنة ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م، (٥ / ٣٥٤).

وابن وهب (ت ٣٣٨ هـ) [١]، والمرزباني (ت ٣٨٤ هـ)[٢]، والقاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ)[٣]، ورأى العسكري (٣٩٥ هـ) أن الضرورة تشين الكلام وتذهب بمائه وينبغي أن تجتنب، وإن جاءت فيها رخصة من أهل العربية [٤].

وتابع شراح الحماسة أسلافهم من اللغويين والنقاد في مفهوم الضرورة، ففصلوا القول فيما يجوز للشاعر في الضرورة من الخروج عن قواعد اللغة والنحو والصرف؛ إذ كثيرا ما يعمد إليها الشاعر ليتيح له اختراق قوانين الشعر، والاجتراء على قواعده ، فيفتح من خلالها "باب التجويز ويتسرب الشك ويستحكم"[٥].

وقد تعددت أشكال وأنواع الضرورات الشعرية التي لجأ إليها الشاعر لتبرئة ساحته من الخطأ؛ بالحذف أو الزيادة أو بالتغيير، كتلك الضرورة التي دعت الشاعر إلى رفع ما حقه النصب ، مثل ما وقع في قول سعد بن مالك: (مجزوء الكامل)

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لا بَرَاحُ

فقوله لا براح، الوجه فيه النصب، ولكن الضرورة دعته إلى رفعها. وقال سيبويه: جعل لا كليس ها هنا فرفع به النكرة، وجعل الخبر مضمرًا. ومثله: (الرجز)

بِنَ الْجَبِيحِ حِينَ لا مُسْتَصْرَخُ

كأنهما قالا: حين ليس عندي مستصرخٌ ولا براحٌ عندي في الحرب. وهذا يقل في الشعر ولا يكثر. وجعل غيره براحٌ مبتدأ والخبر مضمراً؛ وإنما يحسن ذلك إذا تكرر، كقول القائل: لا درهمَ لي ولا دينارٌ، ولا عبدَ لي ولا أمةٌ. الا أنه جور للشاعر الرفع في النكرة بعد لا وان لم يكرر، لأن أصل ما ينفى بلا الرفع، فكأنه من باب رد الشيء إلى أصله. ويقال ما برحت من مكان كذا، أي ما زلت براحاً وبروحاً. وما برحت أفعل كذا براحاً، اي أقمت على فعله، مثل ما زلت أفعله. والبراح الأول في المكان، والبراح الثاني في الزمان، ولا بد له من خبر"[٦].

أو تحريك ما حقه البناء (نجل) في قول ابن رالان السنبسي: (البسيط)

لَمَّا رَأَتْ مِقْشَرًا قَدْ خَطَّ حَوْلَتَهُمْ قَالَتْ سُعَادُ أَهَذَا صَالَتُهُمْ نَجَلا

"والأصل في نجل البناء على السكون، ودعت الضرورة إلى تحريكه فحركه بالفتح ، وكان الواجب إذا حرك الكسر فيه. ومثله قول الآخر: (البسيط)

وَنِعْمَ إِنْ ثُنْتُمُ نَعَمَا

لأن نعم أيضاً مبنيٌ على السكون فحرك آخره للضرورة بالفتح كما ترى"[٧].

---

(١) انظر: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب: البرهان في وجوه البيان، تقديم وتعليق/حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٩ م، ص ١٦٣.
(٢) انظر: المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، جمعية نشر الكتب العربية، القاهرة، ١٣٤٣ هـ ، ص ١٤٤.
(٣) انظر: القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق/علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥١ م، ص ٥٥٢.
(٤) انظر: أبو هلال العسكري: الصناعتين: ص ١٥٠.
(٥) د/أحمد الوردي: شرح الشعر عند العرب، ص ١٨٦.
(٦) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. (١ / ٥٠٦).
(٧) نفسه. (١ / ٦٠٨).

أو تأنيث ما حقه التذكير، كقول جواس: (الكامل)

جنـــتم مـــن الخجـــر البصـــيد بباطـــة والـــشّام تنكـــر كهلهـــا وفتاهـــا

نجده قد "أنث الشام للقافية ، وإنما هو ذكر"[1].

وليس استخدام الشاعر للضرورة الشعرية ـ دائما ـ دليل على قصوره وضعفه، بل إنه قد يدل ـ في بعض الأحيان ـ على قوته ونبوغه، وابتداعه وابتكاره، وهو ما تميز به جامع الحماسة نفسه، فلقد "شعر المعري والتبريزي أن هذا الابتكار والتمرد على القوالب والعبارات العربية الجاهزة المألوفة جانب مميز لشعر أبي تمام، وركن أساسي من أركان ما يسميه أبو العلاء "مذهب الطائي" "[2].

ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا استحسن المرزوقي صورة اللفظة التي ركب فيها الشاعر الضرورة. فنظر إليه يقول عن بيت العديل بن الفرخ العجلي "القصيدة من المنصفات": (الطويل)

أنـــا ابْنَـــا نِزَالٍ الثُّـــاز فـــي ابْنَـــيْ أبيكمـــا ولا تُزْجِـــوانِ اللهَ فـــي جِنَّـــةِ الخُلْـــدِ

"وقطع همزة ابني نزارٍ ضرورةً ، كما قال الآخر: (الطويل)

إذا جـــاوز الاثْنَـــيْنِ سِـــرٌّ فإنَّـــهُ بنَـــثٌّ وإنْشَـــارٌ لِلْوُشَـــاةِ قَمِـــينُ

ويركبون هذه الضرورة في الأكثر الأعم إذا كانت الألف في اسمٍ، وذلك أن ألفات الوصل بها الأفعال دون الأسماء حتى يمكن حصرها إذا لم تكن في مصدرٍ، فإذا كان كذلك فالمعتاد في ألفات الأسماء القطع، فعلى ذلك يستحسن قطعها فيها، وإن كانت في الوصل للضرورة " [3].

ـ التغليب:

وهو "أن يغلب الأرجح من جهة الفصاحة أو البلاغة لفظاً أو معنىً" [4]. "وحقيقته إعطاء الشيء حكم غيره. وقيل: ترجيح أحد المغلوبين على الآخر، أو إطلاق لفظه عليهما، إجراءً للمختلفين مجرى المتفقين" [5]. وقد لجأ إليه الشراح كثيرًا لزيادة شبهة المخالفة عن ألفاظ شعراء الحماسة وتراكيبهم، فقول الشاعر: (الطويل)

ولا نَفْـــرَ الـــرحمنُ يومًـــا و ليلـــةً مَلَكْنَـــاكَ فيهـــا لـــم تكـــن ليلـــةُ البـــدرِ

فحسّن البيت "... غلبة الليلة على اليوم، ولذلك وقع التأريخ على الليالي دون الأيام من حيث كانت الليلة أول الشهر، هذا مذهب للعرب، وإن كان غيرهم مخالفا فيه" [6].

وقول آخر: (الوافر)

فلـــــستُ بهـــــازِلٍ إلا ألمَّـــــتْ بزخْلـــــي أو خيالتُهـــــا الكَـــــذُوبُ

---

(١) ابن جني: التنبيه على شرح مشكل أبيات الحماسة، حماسية (٣٢٣)، ص ٣٧٤.
(٢) الهادي المطوري: مقال بعنوان خصائص الشروح العربية على ديوان أبي تمام، مجلة فصول، القاهرة، تراثنا النقدي، ج١ (مج ٦ / ع ١) ١٩٨٥م، ص ١٤٢.
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٧٣٨ ، ٧٣٩).
(٤) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق د/محمد الحبيب بن خوجة، تونس ١٩٦٦م، ص ١٠٣.
(٥) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، د.ت، ٣٠٢/٣.
(٦) ابن جني: التنبيه على شرح مشكل أبيات الحماسة، ص ٤٤٤.

لـ "أنث الخيال لأنه شبهه بها ، فأكد الشبه بينهما بتأنيثه ليكون مثلها مؤنثا" [1].

- وجود نظائر للاستعمال في القرآن الكريم:

فمن ذلك استعمال شبيب بن عوانة (وراء) بمعنى (قدام) في قوله: (الطويل)

فلـــو كنـــتُ فـــي الأرض الفـــضاءِ تَعِلَّتُهـــا ولكـــن أتـــتْ أبوابُـــه مـــن ورائيـــا

"ووراء بمعنى قدام هنا، ومثله في القرآن: "وكان وراءهم ملك" (الكهف / ٧٨) " [2].

ج - التأويل:

وهو منحى يتخذه الشارح في اتجاه نوع من التبرير لما يعد خروجا بالنص من مجال المستعمل المشهور. حتى "يكتسب الشرح طابعا تبريريا يجعل الشارح لا يألو جهدا في الحد من "تسيب" النص و"اعتباطيته" بزرع بذور المنطق في حقلياه من خلال رصد "الأدلة" وحشد "القرائن" قصد الإقناع، ووسائله في ذلك (التدبر) و(التفسير) و(التحري)" [3].

من ذلك التفسير الذي أورده الشارح لجعل شاعر الحماسة اللفظ مستقبلا وإن أراد المضي، في قول ابن زائدة السبي (البسيط)

إنـــا تـــزى مالنـــا أضـــحى بـــه خَلَـــلٌ فقـــد يكـــونُ قـــديمًا يَرْتَـــقُ الخَلَـــلا

يقول: "وقوله "فقد يكون" جعل اللفظ مستقبلاً وإن أراد المضي، لاستمرار الحال على طريقة واحدة وقد مضى مثله. ويجوز أن يكون حكى الحال، كقوله تعالى: "وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد" (الكهف / ١٨)" [4].

د - كون الاستعمال المخالف في القافية:

فقد يضطر الشاعر مع القافية إلى استعمال لفظ بعينه دون غيره من الألفاظ مع أنها جميعا من واد واحد [5]، وهو ما يعول عليه الشارح لتبرير اضطرار الشاعر إليه مثل "خيرها بلاءً" في قول آخر: (الطويل)

فأغضـــضْتُهُ الطُّـــولي مِنـــانا وخَيْرُهـــا بَـــلاءٌ وخَيْـــرُ الخَيْـــرِ مـــا يُتَثَيَّـــرُ

إذ "كان الواجب في مقابلة الطولي أن يقول والخوري بلاء، أو خوارها بلاء، فعدل به الوزن عن تخير المقابلة" [6].

هـ - كونه يحقق الإيجاز وعدم التكرار:

وهو ما نلحظه في تعليق المرزوقي على بيت عصام بن عبيد الله: (البسيط)

وَلَـــوْ غَـــدْ قَبْـــرٌ وقبـــرٌ كُنْـــتُ أَكْـــرمُهُم مَيْتًـــا وأُبْعِـــدُهم مِـــن مَنْـــزِلِ الـــذَّامِ

---

(١) ابن حجي التنبيه على شرح مشكل أبيات الحماسة، ص ١١٢.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (١ / ٣٢٤).
(٣) د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٣١.
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (١ / ٦٠٩).
(٥) انظر: د/السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح التلخيص على شعر أبي العلاء، ص ٢٦٩.
(٦) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٧٢١) (٢ / ١٦٤٨ ، ١٦٤٩).

فقد قال: "قوله: (لو عد قبر وقبر) المراد به والأصل فيه: لو عدت القبور قبراً قبراً، إلا أنه اختصر الكلام وحذف القبور ورفع قبراً على أن يقوم مقام الفاعل، فلما رفعه وأزاله عن سنن الحال في نحو قولهم: بعت الشاء شاة شاة، وقضيت المال درهماً درهماً، وصمت رمضان يوماً يوماً، رد حرف العطف، وإنما قلت هذا لأنه من مواضع العطف، لكنهم اتسعوا في الحال لعلم المخاطب. وقال سيبويه: إن الغالب على هذا الباب كله أن يكون انتصابه من إحدى الجهتين: الحال أو الظرف، لأن الاتساع منهم على هذا الحد والجواز لم يكن إلا فيهما. والظرف كقوله: لقيته يوم يوم، وصباح مساء، وملابستهما. قال: والإفراد في هذا الباب لا يجوز حماية على المعنى الذي يتضمنه التكرار. وإن قيل: هل يجوز على ما بينت: لو عدت القبور قبر وقبر، على البدل. وكذلك بين حسابه باب وباب؟ قلت لا يجوز ذلك، لأن القصد والغرض من الكلام، وقد أجرى على ماقدم، التفصيل والتتابع، ومن الإبدال على ما ذكرت لا يتبين ذلك. ومع ذكر القبور يحذف من الاسمين المترجمين عن الحال بعده. لا يجوز بعت الشاء شاة وشاة؛ فكذلك هذا، على أن بابي الحال والظرف يحتملان من التوسع ما يضيق عنه أكثر أبواب الإعراب وبعجز، وإذا كان كذلك لم يجز تجاوزهما بالاتساع فيهما إلى غيرهما. ألا ترى أنه لو قال: لو عد قبران كنت أكرمهما مبتدأ، لم يجز، ولم يتبين منه ذلك المعنى، وإن كان المعطوف والمعطوف عليه إذا قلت جاءني رجل ورجل بمثابة جاءني رجلان. ومعنى البيت: لو عدت القبور منوعة مفصلة - وإنما يعني أسلاف من قدم عليه في الاذن والدخول خزولة وعصومة - لكنت أكرمهم آباء وأشرفهم بيوتاً" (١).

و - كون الاستعمال المخالف قد أجازه بعض علماء اللغة:

قال الفول الطهوي قد استعمل (فوارس) لجمع (فارس) في قوله: (الوافر)

فَمَتْ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي فَوَارِسَ صَدَّقُوا فِيهِمْ ظُنُونِي

"وفوارس شاذ في الجموع عند سيبويه، لأن فواعل إنما تكون جمع فاعلة في صفات ما يعقل دون فاعل، واستدرك على سيبويه هالك في الهوالك. وبيت الفرزدق: (الكامل)

وإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خُضَعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ

وبيت عتيبة بن الحارث : (الوافر)

وَمِنِّي فِي غَوَانِيهِمْ قَتِيلٌ

وقال أبو العباس المبرد: هو الأصل في جميعه، ويجوز في الشعر" (٢).

ز - كون الاستعمال المخالف يحقق التخالف في النطق:

وهو ما يمكن أن نلمحه في أكثر من موضع، من ذلك مثلا ما وجهوا به قول العباس بن مرداس: (الوافر)

وَتَضْرِبُهُ الوَلِيدَةُ بِالهَرَاوِي فَلَا عَيْنٌ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرُ

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ١١٧٢).
(٢) نفسه: (١ / ٣٩).

"وقوله (الهراوي) جمع هراوة، وورنه فعائل هراني، لأن فعيلة وفعالة يشتركان في هذا البناء من التكسير . تقول : صحيفة وصحائف ، ورسالة ورسائل ، إلا أنهم قالوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة، فصار هراءا، فاجتمع همزة وألفان فكأنه قد اجتمع ثلاث ألفات أو ثلاث همزات، فأبدلوا من الهمزة واواً فصار هراوى. فإن قيل: هلا أبدلت منه الياء، كما فعلته في مطايا وما أشبهها؟ قلت: أرادوا أن يظهر في الواو كما ظهر في الواحد ليتميز بنات الياء عن بنات الواو"[1].

ح ـ كون الاستعمال المخالف لغة جائزة أو جيدة أو فصيحة أو خاصة:

يقيم الشارح تحليله لتعامل الشاعر مع اللغة على "محورين أساسيين هما المعيار والاستعمال: المعيار بما هو سمة أو مجموع السمات التي تمكن من تمييز عنصر ما عن سائر العناصر الأخرى على نحو من الضبط الدقيق؛ والاستعمال بما هو متكون من مجموع السمات غير المميزة التي تند عن القاعدة. ومن ثم أمكن اعتبار المعيار ما تواضعت عليه المجموعة اللغوية والاستعمال ضربا من التعامل مع اللغة قد لا يراعى فيه بعض ما أجمعت عليه تلك المجموعة من مقاييس وضوابط . فيكون "الخروج" الذي قد يثير حفيظة المتشددين وقد يدفع بالبعض الآخر إلى تأوله وتبريره"[2].

ومن هذا المنطلق دافع الشراح عن لغة شعراء الحماسة، وردوا كثيرًا ممّا قد يتوهم أنه قد يؤاخذ عليهم، فـ (سكلب) في قول رجل من تميم: (الوافر)

أبَيْـــتَ اللَّعْـــنَ لَا سَـــكْلَابِ عِنْـــدِي نَقِـــيسِ لَا تُغَـــارُ وَلَا تُبَـــاعُ

"إذا أعربته منعته الصرف، لأنه علمٌ، فلحصول التعريف فيه والتأنيث مع كثرة الحروف يمنع الصرف. والشاعر تميميٌّ، وهذا لغة قومه. وإذا بنيته على الكسر أجريته مجرى حذام، لأنه مؤنث معدول معرفةٌ، فلمشابهته بهذه الأوصاف درك ونزال يبنى، وهذه اللغة حجازية. واشتقاق سكلب من سكبت إذا صببت. ويقال في صفة الفرس: هو بحرٌ وسكلب"[3].

و(الفتى) في قول سعد بن مالك: (مجزوء الكامل)

إلا الفَتَـــى الـــصَّبَّارُ فِـــي النَّـــ ـــــائِبَاتِ والفَـــزَعِ الوَقَّـــاعُ

"ارتفع على أنه بدلٌ من التخيل، وهذا لغة تميم، ولغة سائر العرب النصب فيما كان استثناءً خارجاً وإن كان جائياً بعد النفي، لأن كونه ليس من الأول يبعد البدل فيه. والنصب كان جائزاً على كل وجهٍ"[4].

فـ (الفتى) يجوز أن يرفع على أنه بدل من التخيل ، ولكن المشهور أن يكون منصوبا على الاستثناء على لغة سائر العرب، وكلتا اللغتين مقبولتان.

---

(١) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة. (٢ / ١١٥٥).
(٢) د/أحمد الوبراني: شرح الشعر عند العرب، ص ١٨٤، ١٨٥.
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (١ / ٢١٠).
(٤) نفسه: (١ / ٥٠٢).

ط ـ كون الاستعمال المخالف قد جرت به عادة المتكلمين:

كما يتضح من تعقيب التبريزي على قوله (عام أولا) في قول آخر: (الكامل)

يـــا أيُّهـــا العـــامُ الَّـــذي قَـــدْ أتيتَـــنـــي أتَـــيـــتَ الـبِـــدَاءَ بِـــذِكْرِ عـــامٍ أوَّلاَ

"وقوله عام أولاً مما ألف منه كثرة الاستعمال فوصف بصفة لم توصف بها نظائره على التعارف، والمراد بهذا أنه لم يقل شهر أولاً ولا حول أوّلاً ولا سنة أولى وإنما خص هو بذلك؛ لكثرة الاستعمال ولأن دلالة الحال وتعارف المتكلمين سوغ الأجراء على ما ألف فيه"[1].

ي ـ كون الاستعمال المخالف قد كثر تردده في الكلام:

كما في لفظ (تدير) في قول جابر بن حريش: (الكامل)

إذْ لا يَخَـــافُ خُـــنُوجُنَا قَـــذْفَ النَّـــوَى قِبَـــلَ الفِـــنَادِ إقَامَـــةً وتَـــدَبُّرَا

فالقياس فيه أن "يقال ما بالدار ديارٌ. ودارِيٌّ، ومنه قوله : (الرجز)

لَيْتَ قَلِيلاً يَلْحَقُ الدَّارِيُّونْ

والأصل في تدير الواو ولكنه بنوه على ديار، لإلفهم له بكثرة تردده في كلامهم" [2].

كذلك ما وقع في جمع (مصيبة) على (مصائب) في قول آخر: (الطويل)

وإنْ خِـــدْتُ كائِـــنْ جَمِيـــعَ مَـــصَائِبٍ مُـــوَفِّرَةٌ تَـــأتِي بِقَاصِـــمَةِ الظَّهْـــرِ

"المصائب: جمع مصيبة، وهي مفعلةٌ، وشبه مدتها بمدة فعيلة، وجمعت جمعها، والقياس مصاوب وقد جاء ولكنه في الاستعمال دون مصائب. وهذا مما شذ في القياس، أعني مصائب. ومصاوب شاذٌ في الاستعمال مطرد في القياس" [3].

٣ـ التطور المجازي لبعض الألفاظ [4]:

للمجاز عند العرب فائدة، عمادها المقاربة والمناسبة في التشبيه والاستعارة، وهي ما قد أشار إليها المرزوقي بقوله: "وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبه والمشبه به، ثم يكتفي فيه بالاسم المستعار لأنه المنقول عما كان له في الوضع إلى المستعار له"[5].

ولقد أفاض الشراح النظر في أشعار الحماسة، تشقيقا وتأويلا، وتوقفوا كثيرا عند أصل المعنى وما صار إليه؛ فالوغى، وهو الحرب في بيت عمرو بن الإطنابة: (الكامل)

والقَـــائِلُونَ لَـــذَى الـــوَغَى أَقْـــرَانَهم إنَّ المَنِيَّـــةَ مِـــن وَرَاءِ الوَاقِـــلِ

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٣ / ١١١).
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٥٩٣ ، ٥٩٥).
(٣) نفسه: (٢ / ١٨٧٦).
(٤) د/السيد حمدان: التصنيف البلاغية والنقدية في شروح الشعراء على شعر أبي العلاء، ص ٢٧٤.
(٥) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: ص ١١.

أصله "الجلبة والصوت، ثم كثر استعماله فصار كناية عن الحرب ..."(١).

وغيرها من الشواهد المتواترة في كثير من الشروح.

ومن صور التطور المجازي كذلك التي لقيت عناية بعض الشراح، ظاهرة التغليب - وإن لم يتم التصريح بها في بعض الأحيان - خاصة تغليب الصفات على الأسماء، فـ (أبيض) في قول زينب بنت الطثرية ترثي أخاها: (الطويل)

مضى وزِنَادُهُ نَوْرٌ من مَفَاضَةٍ ... وأَبْيَضَ هِنْدِيًّا طَوِيلاً حُمَائِلُهْ

صفة غلبت على السيف، يقول المرزوقي: "وأبيض، أي وسيفًا ... وجعله طويل الحمائل لطول قوامه" (٢).

٤- وجه الخصوصية والعلة في اختيار بعض الألفاظ والتعبيرات دون غيرها (٣):

شعر الحماسة بديع المعاني متدفق العاطفة، عامر بالرقة والحلاوة، مستوفي الجمال الفني، وقد دعا هذا الشراح إلى الإعجاب به، ودقة اختيار الشعراء ألفاظهم وتعبيراتهم، فجندوا ثقافتهم الأدبية في سبيل الكشف عما تنطوي عليه الألفاظ والتعبيرات من جمال تعبيري في الصور الشعرية والمضمون.

ونحن نريد أن نتلمس العناصر والمعايير التي اعتمد عليها الشراح في تحديد معالم الخصوصية والاختيار وتعليلها، وهذه تتمثل في:

- ذوقهم الفني، على نحو ما نجد من قول المرزوقي في أثناء شرحه هذا البيت. قال آخر، ويقال إنها لتأبط شرًا (الطويل)

يَظَلُّ بِمُوماةٍ ويُمْسِي بغيرِها ... جَحِيشًا ويَغْدُو قَارِحًا يَعْلُكُ الدَّمَا

"إنما قال يمسي بغيرها ولم يقل ببيت، لأن قصده إلى أن يصفه بأنه يقضي في بياض نهاره مغيرًا، ولو قال ببيت لم يتبين منه ذلك" (٤).

والبراء بن ربعي النهشلي في قوله: (الطويل)

ثَعَالِبَةٌ كَانُوا ذُؤَابَةَ قَوْمِهِمْ ... بِهِمْ كُنْتُ أُعْطِي مَا أَشَاءُ وَأَمْنَعُ

"إنما قال ذؤابة قومهم ولم يقل ذوائب قومهم، لأنه عدهم شيئاً واحداً، لتناصرهم واتفاق أهوائهم" (٥).

- حسهم اللغوي مثل ما نجده في قول المرزوقي عن بيت قسام بن رواحة النبسي: (الطويل)

غَنِيٌّ طَيِّئٌ مِنْ طَيِّئٍ بِنَقَا هِبْدٍ ... مُتَنَطِّقِي غُلَّاتِ كُلِّ الجَوَائِحِ

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ١٦٣٤).
(٢) نفسه. (٢ / ١٠٤٨).
(٣) انظر: د/السيد حميدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح التنصاء على شعر أبي العلاء، ص ٢٧٥ : ٢٨٢، العناصر فقط خلا الشواهد والتعليق عليها.
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٩٥).
(٥) نفسه. (١ / ٨٥٠).

"عسى لفظه وضعت للترجي والتأميل، إلا أنها تؤذن بأن الفعل مستقبل مطموع فيه، فيجب أن يستأنى له، وإن كانت من أفعال المقاربة. وبهذا يبين عن لفظة كاد لأن كاد لمشارفة الفعل فهو يلي الفعل بنفسه تقول كاد زيد يفعل كذا، وعسى يحول بينه وبين الفعل أن، يدلك على هذا أنه كاد زيد يفعل كذا، وعسى يحول بينه وبين الفعل أن، يدلك على هذا أنه قال ستطفئ غلات الكلى والجوانح. لما كان من شرط عسى أن يجيء بعده أن إيذاناً بالاستقبال جعل هذا بدل أن للسين، لأنه أشهر في الدلالة على الاستقبال، وإنما قال عسى طيئ من طيئ لأن الجذاب الذي أشار إليه والفتال، كان بين بطنين منهما" [1].

- خبرتهم للخاصة مثل ما أورده التبريزي عن خصوصية (الصفراء من الجراد) في بيت آخر: (الكامل)

فكأنما طارت بليتي بعدة صفراء عارضها زعيل جراد

"إنما خص الصفراء من الجواد لخفتها في الطيران وهو ذكر الجراد وإنما تقل الأنثى لما فيها من السره وهو بيضها يقال سرأت تسرأ سرأ إذا أنثرته وأسرأت تسريه قبل أن تنثره فلذا دنا نثره رزز الجراد وعزز" [2].

كما بين التبريزي السر في اختيار شهري جمادي والمحرم في بيت المتوكل الليثي: (الطويل)

فإن يسألي الله الشهور شهادة تثبين جمادى غادى المحرم

وهو أن "جمادى من أشهر القحط والضر والمحرم من أشهر الحرم" [3].

- ثقافتهم ومعرفتهم بالأخبار والمشهور وكذلك الأمثال والمأثور ومذاهب العرب.

فمن أمثلة اعتمادهم على المعرفة بالأخبار والمشهور خصوصية (العجم) في بيت ملحة الجرمي: (الطويل)

كأن ذرازي زوره طبقتهما بطين بن الجولان كتاب أعجم

فالشاعر "خصهم لأنهم حينئذ كانوا أحذق بالكتابة وأسبابها" [4].

ويبرز لنا أهمية اختيار اللفظ المحدد، ومدى ملاءمته للسياق الوارد فيه، من خلال تعليق المرزوقي على قول قيس بن الخطيم الأوسي: (الطويل)

يهون علي أن تنوء جزاحها غيون لأوابين إذ خبنت بلاءها

حيث بين السر في خصوصية : الأوابين (النساء)، و سر اختياره لها دون الرجال، بما يشير بثقافته الواسعة و معرفته بالأخبار و المشهور عن العرب، فقال: "الأوابين: النساء المداويات للجراح، والفعل منه لموت. ويقال للرجال الآسون والأساة. وإنما ذكر النساء لأنهم يأنفون من الصناعات، ويعلمونها العبيد والإماء وحرائر النساء أحياناً، إذ لم يكن في غاية بعيدة من الشرف" [5].

---

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (1 / 96).
(2) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (3 / 65).
(3) نفسه: (4 / 144)، والمرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (2 / 1274).
(4) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (782)، (2 / 1749).
(5) نفسه: (1 / 185).

وتعليق النمري على قول آخر: (الطويل)

وَقَفْتُ إِذَا لَمْ تَرْأَمِ البَازِلُ ابْنَهَا ... وَلَمْ يَكُ فِيهَا لِلْمَبَسِّمِ مَرْحَبُ

حيث يقول: "إنما خص البازل لتجربتها، وكثرة ولادتها، وتواتر حنينها، ولذلك قالوا: "لا أفعل كذا وكذا ما حنت النيب"، وهي المسان من النوق، وهي ها هنا التي ولدت ولدا واحدا، وهي أقل رنعاتا، وأقل إشفاقا، ولولا عجز البيت، لساغ أن يريد بالبازل ها هنا المرأة المسنة" (١).

أما ما اعتمدوا فيه على معرفتهم بالأمثال فيتضح من قول المرزوقي عن خصوصية (ريح الأعاصير) في قول زياد الأعجم: (الطويل)

وَمِنْ أَنْتُمْ إِنَّا نَسِينَا مَنِ انْتُمْ ... وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ الأَعَاصِرِ

"وقوله من أي ريح الأعاصير، والأعاصر: جمع الإعصار، وهو الغبار الساطع المستدير، وفي المثل "لن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً". وإنما خصها بالذكر لأنها تسوق غيثاً، ولا تدر سحاباً، ولا تلقح شجراً، فضرب المثل بها لقلة الانتفاع بهم. وهذا كما قال الأخر: (طرفة) (الطويل)

وَأَنْتَ عَلَى الأَدْنَى شِمَالٌ عَرِيَّةٌ ... شَأْمِيَةٌ تَزْوِي الوُجُودَ بَلِيلُ

وهم يجعلون الريح كناية عن النولة، فيقال. فلان هبت له ريح، فكأنه جعل دولتهم لا تجدي ولا ترد نفعاً، بل تتوى وتحر شرا" (٢).

ومما اعتمدوا فيه جريا على عادة العرب : تعليق التبريزي على قول مرة بن محكان التميمي : (البسيط)

يَنْشُنْنَ اللَّحْمَ عَنْهَا وَهْيَ بَارِكَةٌ ... كَمَا تَنَشْنَشُ غُلْمَانٌ قَنَابِلُ

"قال أبو محمد الأعرابي لو قال قائل لم قال فنشنش الجلد عنها وهي باركة ولم ينكر وهي مضطجعة وليس شيء من الحيوان يسلخ إلا مضطجعا قيل له من عادة العرب أنهم إذا نحروا الناقة وخشوا أن تضطجع رادها الرجال من جانبها حتى تموت وهي باركة وذلك أن جزرهم إياها وهي باركة مستوية هو خير من جزرهم إياها وهي مضطجعة على جنبها فإذا ماتت جزلوها والجزل أن يحزوا أصل العنق ما بين المنكبين حتى تسترخي العنق ولم يقطعوه كله وقد فصلوه ثم يكتنفها الرجال فيكتنف المسنم رجلان وذلك أن يكون أحدهما من جانبها من شق والأخر من الشق الأخر وأخران من قبل الكتفين وأخران من قبل العجز فثلاثة من جانب وثلاثة من جانب والسالخ واحد وهي باركة" (٣).

وكذلك المعرفة بعادات الشعراء وأساليبهم، حيث تبع أخر الشعراء في مخاطبة المرأة قائلا: (الطويل)

مَنِّي الطَّوَارِقَ المُعْتَرَّ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قِدْرِي وَمَجْزَرِي

---

(١) النمري: معاني أبيات الحماسة، ص ١٥٥، ١٥٦، حماسة رقم (٤٣٥).
(٢) المرزوقي. شرح ديوان الحماسة. حماسة (٦٦٦)، (٢ / ١٥٣٩ ، ١٥٤٠).
(٣) التبريزي. شرح ديوان الحماسة (٤ / ٦٢).

أبـــــاز وجهـــــي أنـــــه أول البـــــزل وأبـــــذل معروفـــــي لـــــه دون منكـــــري

وهو "إنما خاطب امرأة على عادتهم في نسبة الملامات بسبب التبذير والإسراف والتوسع في الإنفاق إليهن، وإقامة الحجاج والجدال في الأنصباب إلى جوانب الخسارات معهن. ويجوز أن يكون التبجح عندها بما يحمد من خصاله، فلذلك خصها بالخطاب" [1].

- حتهم البلاغيّ، والاستدلال على صحة الاختيار بالمذهب الفني للشاعر، وما تسفر عنه أساليب الشاعر من فصاحة وبلاغة.

وقد تعرض الشراح خلال ذلك لمختلف ألوان البلاغة وفنونها من بيان ومعان وبديع، على نحو من تناولهم للتشبيه، أشاروا إلى أطراف من دقائق خصوصية بعض الألفاظ والتراكيب، مبرزين بذلك مواطن الجمال في تعبير الشاعر وأساليبه. يقول المرزوقي في معرض شرحه لقول ملحة الجرمي: (الطويل)

تَـــلُّ الـــشَّمَاريخَ الأُولَـــى مـــن صَـــبِيرِه شَـــمَاريخُ مـــن لُبْنَـــانَ بـــالطُّولِ والعَـــرْضِ

"الشماريخ: الأعالي. والصبير: السحاب الأبيض. ولبنان: جبل. شبه أعالي السحاب بأعالي هذا الجبل وأنوفه التي تتقدم منه، وقال "الأولى" تخصيصا لما كان من صبيره خاصة، وقال "بالطول والعرض" ليبين وجه التشبيه" [2].

- وقد يكون اللفظ أو التركيب المختار أبلغ في الدلالة على المعنى أو الغرض؛ فمع أن (خصوم) في بيت عمارة بن عقيل: (الطويل)

وأمْـــا إذا آنَـــسْتَ أنَّـــا ورِخْـــوَةٌ فإنَّـــكَ لِلْقُرْبَـــى أَلَـــدُّ خَـــصُومُ

بناء للمبالغة شأنه شأن (خصيم) إلا أنه "أبلغ من خصيم، لأنه أشد تباعداً من أبنية أسماء الفاعلين" [3].

د. المقدّم والمفضّل من الألفاظ [4]:

إن اهتمام الشراح بتحديد خصوصية بعض الألفاظ والتعبيرات، لم تكن لتقف عند حدود التعليل ومن ثم التفسير والتوضيح، بل كان الأمر يتطرق بهم - في بعض الأحيان - للدخول في مسائل أخرى، خاصة بتقييم أداء الشاعر، ومدى توفيقه في اختيار الألفاظ والتراكيب، وما عليه من مآخذ وعيوب؛ زيادة في الإيضاح والتفسير.

ومن أهم السمات التي أشار إليها الشراح وحثوا على أهمية توافرها في الألفاظ ما يلي[5]:

---

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٦٨١)، (٢ / ١٥٧٥، ١٥٧٦).
(2) نفسه: حماسية (٨١٩)، (٢ / ١٨٠٨).
(3) نفسه: حماسية (٥٩٧)، (٢ / ١٤٣٣، ١٤٣٤).
(4) د/السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح القصاء على شعر أبي العلاء، ص ٢٨٣.
(5) نقلا عن د/السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح القصاء على شعر أبي العلاء، من: ٢٨٣ : ٢٩٦، الفصل الخامس الشواهد.

أ- حذفها في النطق:

استرعى انتباه الشراح المواضع التي كان يلجأ فيها شعراء الحماسة إلى التخفيف عن طريق حذف بعض الحروف؛ توخيا للتسهيل، كحذف الهمزة من (اسألي) في قول آخر: (عبد الله بن الدمينة) (الطويل)

سَلي الباخلَ القَعساءَ بالأجرعِ الذي بِهِ البانُ هل خَيَّمتُ أطلالَ دارِكِ

"سلي، أصله اسألي فحذف الهمزة تخفيفاً وألقيت حركتها على السين فصار اسلي، ثم استغنى عن همزة الوصل لتحرك ما بعدها فحذفت فصارت سلي. وهذا كما تقول في الأحمر إذا خففته: لحمر. ومن قال الحمر يقول: اسلى فيبقي ألف الوصل" (1).

أو عن طريق إسقاط بعض حروف الكلمة - غير الهمزة - استثقالا لها. هذا الاستثقال في النطق قد يكون بسبب اجتماع حرفين متشابهين، فـ (تشوقيني) في قول رجلٌ من بني كليب: (الوافر)

وخَنَّتْ ثائِبي طَرَبًا وشَوقًا إلى مَن بالحنينِ تَشَوَّقِيني

"حذف نونه استثقالاً لاجتماع نونين، والأصل تشوقينني. ومثله في الحذف قول الآخر: (الوافر)

يَسُوءُ الفالِياتِ إذا فَلَيْنِي

يريد فلينني" (2).

أو قد يكون استطالة للاسم بصلته، كما في قول العديل بن الفرخ العجلي "القصيدة من المنصفات": (الطويل)

فَما كانَ الأرضُ اللَذا لَو تَزَعزَعا تَزَعزَعَ ما بَينَ الجَنوبِ إلى الشَمأ

"وقوله اللذا لو تزعزعا حذف النون استطالةً للاسم بصلته. وعلى هذا قوله: (الأخطل) (الكامل)

أبَنِي كُلَيبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَذا قَتَلا المُلوكَ وفَكَّكا الأغلالا " (3).

ب- الدقة في اختيارها:

وذلك بأن "يختار للمعنى اللفظ الذي هو به أخص وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية" (4)، وقد تعرض الشراح - أثناء إضاءة هذا الجانب - لتوضيح مواضع الكلم، وتحديد محلها الدلالي والبلاغي في أداء المعنى، مما يعكس "حسا أدبيا في الإفصاح عن أسرار الألفاظ والكشف عما تنطوي عليه من دقائق تعبيرية" (5)، مثل ما نجد في شرح المرزوقي لقول جعفر بن علبة الحارثي: (الطويل)

فَقُلتُ لَهُم بِالغُم إذ بَعَدَ غَرَّةٍ ثَعالِبُ صَنزى نوءُها مُتَغايِلُ .

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، حماسية (510)، (2 / 1307).
(2) نفسه. (1 / 294).
(3) نفسه. (1 / 738، 739، 740)
(4) عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه/محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط3، 1413 هـ، 1992 م، ص 35.
(5) د/ عبد الله الجيوسي. حماسة أبي تمام وشروحها دراسة وتحليل، ص 106.

حيث يقول: "واختار أن يقول "متخاذل" لأن هذا البناء يختص بما يحدث شيئا بعد شيء، على ذلك قولهم تداعى البناء، إن كان أجزاء النهوض وخذل بعضها بعضاً فلا يكمل، وكأنه أنكر عليهم الاشتراط والتحكم والإلحاء منهم إلى ذلك" (١).

وخصوصية الاختيار تلك، تعتمد على دعائم تقوي من أحقية اللفظة المختارة في أداء المعنى دون غيرها من المفردات والألفاظ منها حسن التعبير الموجز والتركيز الشديد في المعنى الذي يدور في خلجات الشاعر، وكذلك مدى مناسبتها للسياق الواردة فيه "وهل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من دلالة صاحبتها على ما هي موضوعة له حتى يقال إن رجلا أدل من فرس، فلذا لا تتفاضل الكلمتان المفردتان إلا بالنظر إلى المكان الذي تقعان فيه من نظم الكلام. ولا تجد أحدا يقول هذه الكلمة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها" (٢).

فـ (القرارة) التي يعني بها القبر – مثلاً – في قول الضبي: (الكامل)

أأبـــيُّ إنَّ تُـــصِبْكَ رَهْـــينَ قَـــرارَةٍ زَلَـــجَ الجَوابِـــبِ قَعْرُهـــا مَلْحُـــودُ

هي والقرار واحد إلا أن "دخول الهاء وسقوطها في أسماء المواضع كثير نحو دار ردارة ومكان ومكانة ومرقب ومرقبة فإذا دخلت الهاء كان أخص"(٣).

ولكن الشراح في الوقت ذاته، عابوا على شعراء الحماسة في بعض المواضع عدم دقتهم في بعض ألفاظهم، لأن هناك ما هو أدق منها وأليق بالسياق.

لفظ (نزوع) في قول آخر: (البسيط)

لا يَنْتَطِـــكَ خَلْـــضَ الغَـــيْشِ فِـــي ذَغَـــةٍ نُـــزُوعُ نَفْـــسٍ إِلَـــى أَهْـــلٍ وَأَوْطَـــانِ

"يروى نزاع نفس وهو أجود لأن للنزوع اشتهاره في الكف عن الشيء والنزاع في الشوق وإن كان جائزاً وقوع أحدهما موقع الأخر في الشوق"(٤).

ومما يعاب على شعراء الحماسة استخدامهم المشترك دون قرينة ، فـ (تكاثأ جمعهم) في قول قتادة بن مسلمة الحنفي: (الكامل)

فَـــاتَتْهُمُ حَتَّـــى تَكَاثَـــأَ جَمْعُهُـــمْ وَالخَيْـــلُ فِـــي مَنْـــهَلِ الـــدِّمَاءِ تَغُـــومُ

قد تحتمل "انكفؤوا فهزموا. وهذا من الكفء: قلبك الشيء لوجهه. ومنه كفأت الإناء، إذا قلبته. ويجوز أن يكون من الكفء: النظير والمثل، ويكون المعنى تكافؤوا في مدافعتي ومقاومتي، أي تساووا حتى لم يفضل أحدٌ منهم على الآخر في ذلك. وعلى هذا ما روي في الخبر: "المسلمون تتكافأ دماؤهم" "(٥).

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. (١ / ٤٦ ، ٤٧).
(٢) عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز، ص ٣٥.
(٣) المرزوقي. شرح ديوان الحماسة. (٢ / ١٠٤١).
(٤) التبريزي شرح ديوان الحماسة: (١ / ١٤٧).
(٥) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (١ / ٧٦٧).

وكذلك كلمة (سخامي) في قول ابن السلماني: (الطويل)

لعمري لقد كانت فجاج غريضة ... وليل سخابي الجناحين أدهم

قد تحتمل الأسود، وقد تحتمل الريش اللون تحت الجناح، فهي لفظة مشتركة استعملها الشاعر دون قرينة، ولكنها على الوجه الثاني أرجح "لأن قوله أدهم قد دل على الظلمة" (١).

ج- الوضوح وعدم الغموض:

إن وضوح الكلمة وعدم غموضها أمر ضروري كي يتلقى المستمع النصوص الشعرية، ويستجيب لها بسرعة، بإدراك ووعي وانتباه، دون وجود صعوبة في التلقي والاستيعاب، إلا أن بعض الشعراء يجنحون - إما عن قصد أو غير قصد في بعض الأحيان - إلى الغموض والإبهام في أشعارهم، مما يشدد أمر تبسيط النص الشعري وتسهيله على الشارح ومن ثم على المتلقي ذاته.

ومن هنا وجدنا شارحا كالمرزوقي "لم يفسح المجال للحديث عن الغريب، ولم يكن يهتم كثيرا بشواذ اللغة، ولم يجنح إلى الإسهاب في المسائل اللغوية العويصة، لأن هدفه هو التقريب والتسهيل من جهة، ولأنه كان يحرص على المتعة العقلية الناتجة من قراءة الشعر" (٢).

وبعض شعراء الحماسة كانوا يضمنون أشعارهم بعض الغريب من الألفاظ على الرغم من إيثارهم لوضوح الألفاظ والتراكيب، مما أوقع الشراح في الحيرة والتردد من تحديد معزى الشاعر، ومقصده.

مثل ما ورد في قول أرطاة بن سهية: (الطويل)

وتحسن بتسو غم على ذات بينها ... زرابي، ليتا بغضة وتنافض

يقول النمري: "وقال أكثر أهل العلم : لا ندري ما الزرابي ها هنا" (٣).

د ـ أن تكون جارية على الحرف العربي الصحيح والمشهور:

يعمد الشراح إلى ما تواضع عليه العرب في الاستعمال، كمقياس لصحة الكلمة، وفصاحتها، فالشارح "يخضع تحليله المعجمي لمقولات صرفية متواضع عليها يسعى إلى أن يتعرف من خلالها على الوحدة المعجمية في انتمائها المقولي" (٤)، وبذلك نجد أن "التحليل المعجمي يتم وفق مقولات الصرف المعروفة مما يدل على أن البحث في معاني الكلمات مشروط بمدى التطابق والضوابط الصرفية. فالشرح هو في وجه من وجوهه عمل علمي ضابط يحد من تسيب المعنى المعجمي، وذلك بتقييده ببنية الكلمة وما تقتضيه من خصائص شكلية وقوالب اشتقاقية" (٥).

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٧٦١).
(٢) د/أحمد جمال العمري: شروح الشعر الجاهلي، ضمن الشراح (٢ / ١٧٠).
(٣) النمري: معاني أبيات الحماسة: حماسة رقم (١٣٧)، ص ٨٤.
(٤) د/أحمد المدوري: شرح الشعر عند العرب، ص ٦٧.
(٥) نفسه: ص ٦٧.

وشرّاح شعر ديوان الحماسة كانوا - في الغالب - يؤثرون المسموع المشهور وما عليه الجمهور، ويرفضون ما سواه، والقياس يأتي في المرتبة الثانية بعد السماع. وقد احتكم الشرّاح إليه واحتجوا به في مواضع كثيرة سبقت الإشارة إلى نماذج منها (١).

وقد تعقّب الشرّاح شعراء الحماسة في ما خالفوا فيه هذا العرف فيما يخصّ(٢):

- ضبط الكلمة:

مثل تحريك دال (قِدي) في قول رجل من كلب: (الطويل)

فآليْتُ لا آسَى على إثْرِ هالِكٍ ... قِدِي الآنَ مِنْ وَجْدٍ على هالِكِ قِدِي

"والأجود إذا أضيفت قد إلى الياء أن يقال قدني فتزاد النون ليسلم سكون الدال كما قالوا عني ومني فشدّدوا النون رعْية في بقاء السكون وقال زيد الخيل: (الوافر)

ولَوْلا قَوْلَةٌ يا زَيْدُ قِدْني ... إذا قامَتْ نُوَيْرَةُ بالمَعالي " (٣).

- تصريف الكلمة:

دافع المرزوقي عن الصمة بن عبد الله القشيري في اختياره لفظة (ريا) بدلا من (روى) في قوله: (الطويل)

حَنَنْتُ إلى رَيّا ونَفْسُكَ باعَدَتْ ... فَمَزّارُكَ مِنْ رَيّا وشُطّانُكُما مَعا

"ريا: اسم امرأة. فإن قيل: هلا قيل روى، لأن فعلى إذا جاء اسماً من بنات الياء تقلب لامه واواً، على هذا الفتوى والشروى والتقوى والبقوى؟ قلت: إنه سمي به منقولاً عن الصفة، وفعلى صفة يصح فيه الياء، على هذا قولهم: خزيا وصديا وريا كأنه تأنيث ريان في الأصل، كما يقال عطشان وعطشى، ثم نقل من باب الصفات إلى بابا التسمية بها فترك على بنائه" (٤).

- إعراب الكلمة:

وهو مما أولاه الشراح اهتماما كبيرا، حتى ليعد من أبرز المجالات التي جالوا فيها، وتتبعوا فيه الشعراء، من ذلك - مثلا - ما علّق به المرزوقي على هذا البيت لزياد بن حمل، وقيل زياد بن منقذ: (البسيط)

لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ إذا يَقْذُونَ أَرْبَعَةٌ ... إلا جِيادٌ قِصَارُ الشَّعْرِ والدُّجُمُ

بقوله: "وقوله إلا جياد رفعة والوجه الجيد النصب، لأنه منقطع مما قبله، لكن بني تميم يرفعون مثل هذا على البدل. وهذا يشبه بدل الغلط لهذا ضعف في الإعراب" (٥).

---

(١) انظر ما سبق في الحديث عن تأصيل التعبير.

(٢) مثلا عن د/أسيد حمدان: قضايا البلاغية والنقدية في شروح القدماء على شعر أبي العلاء، ص. ٢٩٣ ٢٩٦، العناصر فقط فلا الشواهد.

(٣) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٣ / ٥٧).

(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. حماسية (٤٥٤)، (٢ / ١٢١٥، ١٢١٦).

(٥) نفسه (٢ / ١٤٠٢).

- دلالـــة الكلمـــة:

فتَبْرُمَةُ بن الطُّفَيْل لم يوفق في قوله: (الطويل)

لفضـــربِ بـــزيمٍ عِنْـــدَ بَـــابِ ابـــن مُحْـــرِزٍ أغَـــنُّ غليـــهِ الزارفَـــانِ هَـــشُوفُ

لأن "الريم الظبي الخالص البياض وأغن في صوته غنة والغنة صوت يخرج من الأنف وهو صفة للريم لا للمرأة تشبه المرأة به ثم نعته والمشوف المجلو وهو من صفات الريم أيضاً وكان الأجود أن يكون من صفات البارق وهو فارسي معرب اصله بارة وهو السوار" (١).

- لغة الكلمة المشهورة:

لقد تعرض شراح الحماسة كذلك للألفاظ التي استخدمها الشعراء وهي مرفوضة في الاستعمال، أو غير مقيسة.

فـ "المآقي" في قول آخر لي امرأتين تزوج بهما: (مجزوء الكامل)

بَاتَـــــتْ فَلَـــــمْ يَـــــأْنَمْ لَهَـــــا قَلْبِـــــي ولَـــــمْ تَبْـــــكِ الضَـــــآقِي

"هو جمع المؤقي على وزن المعقي ، وهو طرف العين الذي يلي الأنف، وهو مخرج الدمع. فلذلك جعل الفعل لها. وفي هذه اللفظة عدة لغات:

مأقٌ على وزن المعق وجمعه آماقٌ، ومأقٍ على زنة قاضٍ والجميع مواقٍ. وحكى أبو زيد مأقَنٌ والجمع مواقن. وقال امرؤ القيس في المأقي: (المتقارب)

شُقَّتْ مآقِيهما من أخَرْ

وحكى يعقوب "في المنطق" عن الفراء، أنه ليس في كلام العرب مفعلٌ بكسر العين إلا حرفان: مأقي العين، وملوي الإبل، وهذه اللفظة على اختلاف اللغات قد عملتها مسألةٌ، وتكلمت في وجوهها، وبينت خطأ من وزن مأقي العين بمفعلٍ بكسر العين" (٢).

حيث نجد الشاعر قد خالف العرف الفصيح والمشهور في استخدامه قياس غير صحيح، قد أخطأ في الوزن عليه.

وكذلك ما أورده المرزوقي في تعليقه على بيت الشاعر: (الطويل)

لَـــئِن كَـــانَ يُهْـــذِي بَـــزْدُ أنيابِهَـــا الظُّبَـــى لأَفْقَـــرَ مِنِّـــي إنْنِـــي لَفَقِيـــرُ

الذي عد فيه "أفقر" مبني على "فُعُر" المرفوض في الاستعمال، معللا ذلك بالقول: "وإنما قلت هنا لأن فقيرا كان حكمه أن يكون فعله على فقر، ولم يجئ منه إلا افتقر. وشرط فعل التعجب وما يتبعه من بناء التفضيل ألا

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٧٠٣).
(٢) نفسه: (٢ / ١٨٦٨ ، ١٨٦٩).

يجيء إلا من الثلاثي في الأكثر، وما كان على أفعل خاصة، وإذا كان كذلك فالفقر لا يصح أن يكون مبنيا على الفقر ولكن على الفُقُر" (١).

- بنية الكلمة:

مثل حذف عمرو بن كلثوم نون (مِنْ) في قوله: (الطويل)

فَمَا أَنْكَحَتْ الأَيَّامُ مِلْحَالِ جِئْتُنَا ... سِوَى جَحْشِ أَذْوَادٍ مُحَذَّفَةِ النَّسْلِ

"وقوله "ملمال" أراد من المال، فجعل الحذف بدلاً من الإدغام لما التقى بالنون واللام حرفان متقاربان، الأول متحرك والثاني ساكن سكوناً لازماً" (٢).

ومثله ما جاء في قول ابن ميادة: (الطويل)

وَمَا أَنْتِ مِنْ أَشْيَاءِ لا أَنْتِ قَوْلُهَا ... وَأَنْفُعُهَا بَذْرِينَ خَشْوَالمَكَاحِلِ

تَمَتَّعْ بِهَذَا اللَّوْمِ اللَّصْبِرِ فَإِنَّهُ ... زَهِينٌ بِأَيَّامِ الشُّهُورِ الأَطَاوِلِ

فـ "قوله مل أشياء أصله من الأشياء، وجعل الحذف بدلاً من الإدغام لما تعذر إتيانه في المتقاربين، وقد مر مثله مستقصى" (٣).

ولقد نزع الشراح في تحليلهم أشعار الحماسة إلى إزالة ما يعيب استعمال الشعراء للحذف مما خالفوا فيه القياس، فما لم يصح من أشعارهم على القياس فهو يصح على كثرة الاستعمال ، مثل حذف (اللام) و(الهمزة) من أصل الكلمة في قول: (الطويل)

وَيَلْمِمْ بِهَا فِي الشَّاءِ مَعِيشَةُ ... مَعَ الْقَطْرِ بَطَّاءُ الْقَتَى الْمُتَلَفِّفُ النَّدَى

وَقَدْ يَظَلُّ الْفَتَى دُونَ هَمِّهِ ... وَقَدْ كَانَ لَوْلا الْفَلُّ طَلاعَ أَنْجُدِ

حيث يعلق المرزوقي على هذا الحذف بقوله: "لفظه (ويل) إذا أضيفت بغير اللام فالوجه فيها النصب، تقول: ويل زيد، والمعنى ألزم الله زيداً ويلاً، فإذا أضيفت باللام قيل: ويل لزيد، فحكمه أن يرفع فيصير مع ما بعده جملة، لابتداء بها وهي نكرة لأن معنى الدعاء منه مفهوم. والمعنى: الويل ثابت لزيد. كأنه عند محصلاً له، كما يقال: رحيم لله زيداً فيجعل اللفظ خبراً. وإذا كان حكم ويل هذا وقد ارتفع في قوله (ويلم لذات الشباب) فمن الظاهر ان أصله ويل لأم لذات الشباب، فحذف من أم الهمزة، واللام من ويل، وقد أبقى حركة الهمزة على اللام الجارة، فصار ويلم. وقيل: ويلم، كما قيل: الحمد لله و الحمد لله إتباعاً لإحدى الحركتين الأخرى، وقصده إلى مدح الشباب وحمد لذاته بين لذات المعاش وقد طبع لصاحبه الكثر، وهو كثرة المال، فاجتمع الغنى والشباب له وهو سخي مبذر فيما وكسبه ذكراً جميلاً، وصيتاً عالياً" (٤).

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ١٣٠٥).
(٢) نفسه: حماسية (١٦٠)، (١ / ٤٧٦).
(٣) نفسه: حماسية (٥٥٢)، (٢ / ١٣٥٥).
(٤) نفسه: حماسية (٤٤٨)، (٢ / ١٢٠٢).

ومثله تعليقه على قول قراد بن حبش الصاغاني: (الطويل)

لقومي أرعى للغلى من عصابة ... من الناس يا خار بن غضر وثؤدها
وأنتم سماة يُعجبُ الناس رؤها ... بأبدٍ تُنجي شديد وئيدها
تخطّع أطناب البيوت بحاصبٍ ... وأكذبُ شيءٍ بزقُها ورُغودها
فويلُمها خيلاً بهاة وشارة ... إذا لاقت الأعداء لولا صدودها

"وقوله فويلمها خيلاً انتصب خيلاً على التمييز، وحذفت الهمزة من أم في قوله ويلمها لكثرة الاستعمال، وليس الحذف هنا بقياس. واللفظة تفيد التعجب" [1].

أو حذف (الياء) و(الألف) في قول عمرو بن حكيم: (الطويل)

خليليَّ أمسى حبُّ خزّقاء غابري ... فقلبي الفؤاد بئسة وفؤادُ وصـ
ولو جاوزتنا الغام خزّقاءُ لم تُبلْ ... على جئنا ألا يصوبَ زبيد

"وقوله لم تبل جزمه مرتين لأنه كان نبالي، فدخل الجازم عليه فحذف له الياء فصار لم نبال، ثم لما بعد أن طلب تخفيفه لكثرته في الكلام، فالتقى ساكنان: الألف واللام، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار لم ومثل هذا لا ينقاس" [2].

هـ - فصاحتها:

لفصاحة الكلمة شروط وقواعد تواضع النقاد عليها، وأسهبوا في الحديث عنها [3]، ومجاها "سلامتها من تنافر الحروف، ومن الغرابة، ومن مخالفة قواعد اللغة المستقراة من استعمال العرب" [4]، ومع ذلك نجد أن "للفصحاء الصلين في أشعارهم ما لم يسمع من غيرهم" [5] ، فـ "مع هذه الصرامة التي سادت أوساط اللغويين والنحاة الأوائل، نرى - في إعجاب - من نادى منهم بعدم الالتزام الحرفي بقواعد اللغة وما إليها كأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) فضلا عن بعض الشعراء، كأبي الطيب المتنبي" [6]، معنى هذا أن لفصاحة الكلمة معايير وضوابط قد يجترأ عليها الشاعر لا للاضطرار إليها، بقدر ما هو بقصد الاتساع والزيادة، أو بمعنى آخر "قد يجوز للشاعر من الكلام ما لا يجوز لغيره لا للاضطرار إليه، ولكن للاتساع فيه، واتفق أهله عليه يحذفون ويزيدون" [7].

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٥٩٦)، (٢ / ١٤٣٠).
(٢) نفسه، حماسية (٥٩٠)، (٢ / ١٤٢١).
(٣) انظر: ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، صححه وعلق عليه/عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م، ص ٦٦-١٠٠، وعبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١٢، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، (١٠/١)، والقلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤ م، (٢٠٤/٢، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٤٨).
(٤) محمد الطاهر ابن عاشور: شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ط ٢، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، ص ٣٢.
(٥) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق/علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥١ م، ص ٥٢.
(٦) د/المعني محمد أبو عيسى: القضايا الأدبية والنقدية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة، ص ٢٩٦.
(٧) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص ٤٥٠.

وتعرض الشراح لهذا الجانب يؤكد حرصهم على "تبيين مواطن الفصاحة، وأسرار الجمال اللغوي والتعبيري، وإبراز مدى نجاح الشاعر في توصيل رؤاه النفسية إلى الناس، ومقدرته على اختيار وسائل التعبير التي تطيق حمل تجربته، عند التعبير عما يجيش في صدره" (١).

فإذا كانت الكلمة المختارة أفصح من غيرها، ينوه الشارح إليها، لكن دون تفصيل. فكلمة (رصد) في بيت امرأة أخرى: (أم السليك) (الرمل)

والعنايا رصدٌ للفتى حيثُ سلكْ

الذي "بعضهم يرويه: والعنايا رصد كأنه جمع الراصد لكون العنايا جمعاً. والأول أفصح وأجود" (٢).

وقد تكون الكلمة المختارة أقل فصاحة من نظيراتها في روايات أخرى، مما يستلزم التنويه إليها أيضاً، بدون تفصيل أحياناً، كما جاء في كلمة "أرض" في قول أبي الغول الطهوي: (الوافر)

ولا يزعُدْنَ أكنافَ الهَدُوِيِّ إذا حلُّوا ولا أرضَ الهَدُونِ

"يروى: ولا روض الهدون، وهو أفصح" (٣).

وبتفصيل أحياناً أخرى، كما جاء في كلمة (أرجيته) في قول ربيعة بن مقروم: (الكامل)

أزجيتُهُ عَنِّي فأبْصَرَ قَصْدَهُ وكَوَى وَسَهُ فوقَ النواظِرِ من عَلِ

"ذكر بعض المتأخرين في أرجيته، أن الرواية الصحيحة "أوجيته" وما عداه تصحيف. قال. وهو أنعلته من الوحي، وإنما أوجب ذلك ليكون لفق قوله بزعمه: "وكويته". والمعنى أنللته ورددته رازحاً كرزوح الفرس الوجي. ثم أنشد قول طرفة مؤنساً به: (الطويل)

وقومٍ تشاهَوْا عن أذاتي بعدما أصاب الوجى منهم مشاشَ المناكِبِ

... والرواية الصحيحة "أرجأته" و"أرجيته" وهما لغتان، والهمز أفصح. قد يروى: "ترحى من تشاء منهن" و"ترحي". ويروى: "أوحيته"، ويروى: "أزجيته" والمعاني تتقارب في الكل" (٤).

ومما يمثل الفصاحة مخالفة الاستعمال القرآني وإن كثر استعماله في مواضع أخرى؛ مثل حذف حرف العطف (الواو) في قول المثلم بن رياح: (الطويل)

من مبلغٌ عني مناتاً رسالةً وشجنة أن قوماً خذا الحق أودعا

إذ "لو قال قوماً وخذا الحق، فأتى بحرف العطف كما قال الله تعالى: "قم فأنذر. وربك فكبر" كان أفصح. وقد جاء مثله بغير المطلف كثيراً" (٥).

---

(١) د/أحمد عمال العمري: شروح الشعر الجاهلي: مناهج الشراح (٢ / ١٩٠).
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٩١٦).
(٣) نفسه: (١ / ٤٣).
(٤) نفسه: (١ / ٦٤).
(٥) نفسه: (١ / ٣٨٢).

ومما يتنافى مع الفصاحة العدول عن المسموع المشهور إلى القياس المهجور أو مخالفته [1]؛ فلو قال الأشجع السلمي بدلا من (حازع) و(فارح) في قوله: (الطويل)

وما أنا من زُؤمٍ وإن جَلَّ جازعٌ ولا بمرورٍ بعد مَوْتِك فارحُ

"جزعٍ وفرحٍ، كان أفصح وأكثر، لأن فعل إذا كان غير متعدٍ فالأجود والأقيس في مصدره فعلٌ، وفي اسم الفاعل فعلٌ، وإذا كان متعدياً فبابه فاعلٌ. وقد قيل في المريض مارضٌ، وفي السليم سالمٌ، لأن البابين يتداخلان" [2].

و – بلاغتها:

أشار شراح الحماسة أثناء تعرضهم للكلمة إلى بلاغتها، ومدى مناسبتها للسياق الواردة فيه، ومقدرتها في توصيل مكنون الشاعر، والتعبير عما يحول بداخله.

فنراهم يعلقون على الألفاظ التي تؤدي إلى إصابة المعنى المقصود بقولهم: هذه اللفظة ... أبلغ من ...، لكن دون تفصيل. كما في بيت ملحة الجرمي: (الطويل)

يُغَابِطُ مَخْضَ الماءِ أو هُوَ مَخْضُهُ على إثْرِهِ إن كان للماءِ مَخْضُ
يُزَوِّي الفُروقَ الهابِذاتِ من البِلَى مِنَ الفَزْفَجِ النَّجْدِيِّ أو الخَمْضِ

"والهمود أبلغ من الخمود" [3].

وقد تكون الكلمة المختارة أقل بلاغة من نظيراتها، فكان لابد من التنويه أيضًا بذلك، ودون تفصيل كذلك، كما جاء في كلمة "النضح" في قول آخر: (الكامل)

ولقد نَضَحْتُ عليَّ فتيتُ عن آلِ عُتَّابٍ بماءٍ باردِ

لـ "النضخ بالخاء المعجمة أبلغ من النضح" [4].

هكذا حرص شراح الحماسة على التعرض للفظ وأهم ما يجب أن يتصف به من شروط الاختيار وطرائقه حتى يكون عندهم مفضلا. أما عن التراكيب فشأنها في تعامل الشراح معها شأن الألفاظ منوهين عن الشروط والمواصفات التي يجب أن يتحلى بها التركيب حتى يكون مفضلا، والتي يمكن إيجازها في [5]:

---

(1) د/عبد المنعم السعيدي: بغية الإيضاح: 1 / 12.
(2) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. (1 / 858 ، 859).
(3) نفسه: حماسية (819)، (2 / 1809).
(4) نفسه: حماسية (690)، (2 / 1591).
(5) نقلا عن د/السعيد حسدان "تناسبها البلاغية والنفسية في شروح التنماء على شعر أبي العلاء: ص 298، 311. الخلاصة فقط خلا الفوائد والتعليق.

أ- تجنب التكرار:

والتكرار من الألوان البلاغية التي تعرض لها البلاغيون قديما تحت مسمى التكرير أو التكرار[1]، والتي لم يستحسنها كثير من الشراح سواء أكان هذا التكرار باللفظ أم بالمعنى، لذلك نراهم يعيبون على الشاعر تكراره لذات المعنى في النص، مما دفع بعضهم إلى أن يختار أو يقترح روايةً تتلافى التكرار الذي لا يؤدي إلى زيادة في المعنى.ولنتأمل على سبيل المثال بيت بعض شعراء بلعنبر: (البسيط)

إذاً لقـــامَ بِنَـــصْرِي مَعْشَرٌ خُشُنٌ عِنْـــدَ الحَفِيظَـــةِ إنْ ذُو لوثَـــةٍ لانَـــا

فقد قال عنه المرزوقي: "وقوله إن ذو لوثة تعريض منه بقومه ليغضبوا ويهتاجوا لنصرته. وهو في البعث والتهييج أحسن من التصريح، كما أنه في الذم والهجو كذلك. وهذا بعض الناس رواه إن ذو لوثةٍ وزعم أن ذو لوثةٍ ليس بجيد لأن الضعيف أبداً مهين، والواجب أن يقول إن القوي لان، واللوثة هي القوة. والرواية الصحيحة هي ضم اللام من اللوثة. والفائدة ما ذكرت من التعريض بقومه. ولأن يكون طرفا البيت متناولين بمعنيين متقابلين، أحسن من أن يكونا مبنيين لمعنى واحد" [2].

أو قد يقترح توجيهًا كما جاء في تعليق المرزوقي في بيت آخر: (الطويل)

ونُبِّئْـــتُ لَيْلَـــى أَرْسَـــلَتْ بِـــشَفَاعَةٍ إِلَـــيَّ فَهَـــلا نَفْـــسٌ لَيْلَـــى شَـــفِيعُهَا

يقول المرزوقي: "معنى البيت: خبرت أن ليلى ارسلت إلى ذا الشفاعة في بابها، تطلب به جاهاً عندي، مستكفية عن ذكرها في الشعر وعن إتيانها وما يجري مجراه. ثم قال: هلا جعلت نفسها شفيعاً. فقوله (بشفاعة) حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، الفعل الذي يقتضيه هلا دل عليه شفيعها، لو قال: هلا نفسها شفيعها ـ لكان أقرب في الإستعمال، إلا أنه قصد إلى التفخيم بتكرير اسمها" [3].

وقد ينزع الشارح ـ أيضًا ـ في التفسير إلى ما قد يحذب النص تكرارًا لا فائدة منه، فـ (ما) في قول شاعر الحماسة: (الطويل)

ولَقَبَّلْـــتُ ثَغْرَتَيْـــهِ مِـــنْ هَـــوَايَ صَـــبَابَةً كَمَـــا كُنْـــتُ أَلْقَـــى مِنْـــكِ إِذْ أَنَـــا مُطْلَـــقُ

"الأجود أن يكون "ما" موصوفة غير موصولة، لأنك إذا جعلتها موصوله كانت معرفة وفي تقدير الذي، والقصد إلى تشبيه صبابةٍ مجهولةٍ بمثلها، والتقدير عرت صبابةً تشبه صبابةً كنت أكابدها فيك في ذلك الوقت. كأنه شبه حاله فيها بعد ما مني به بحاله من قبل" [4].

---

(١) انظر: الفراء: معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت وشاكر المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د.ت (٢/ ٢٣٤، ٣/ ٢٨٧)، وأبو عبيدة: مجاز القرآن، خلق عليه د.فؤاد سزكين، ط٢، مطبعة الخانجي، مصر، ١٩٨١م (١/ ١٢)، والجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق/عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م (١/ ١٠٤)، وابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ (٢٣٢ – ٢٣٥)، والباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٧٧م، ص ١٦٠.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١/ ٢٥ ، ٢٦).
(٣) نفسه: (٢/ ١٢٢٠ ، ١٢٢١).
(٤) نفسه: (١/ ٥٥).

فقد اختار الشارح تفسير (ما) وتأويلها على الوصفية بدلا من الوصلية حتى لا تكون بمعنى الذي، فيقع في البيت تماثل في التشبيه، ويكون هناك تكرار لا فائدة منه، ولا يضيف جديدا للمعنى.

ونحو ذلك تفسير التبريزي كلمة (النقع) في قول قتادة بن مسلمة الحنفي: (الكامل)

لَمَّا التَقَى الصَّفَّانِ وَاخْتَلَفَ القَنَا ... وَالخَيْلُ فِي نَقْعِ العَجَاجِ أَزُومُ

"النقع الأجود أن يكون مصدر نقع الشر والصوت والموت إذا كثر وارتفع، وأن عدل به عن الغبار، ومعنى رهج الغبار ما أثير منه، قال أبو هلال: النقع والعجاج واحد فأضاف لاختلاف اللفظين، وأجود من هذا أن يقال النقع ما كثف من الغبار وثبت، مأخوذ من قولهم ماء ناقع وسم ناقع أي ثابت، والعجاج ما يستطير منه فأضاف أحدهما إلى الآخر لاختلاف المعنى" [1].

ب- تجنب الحشو:

اصطلح البلاغيون على أن الحشو هو "الكلام المأتي به بالادعاء، والعبالغة التي لا تتطلبها الفكرة" [2]، أو "هو الزائد الذي لا يعتمد عليه ولا فائدة منه" [3]، وقسمه العسكري (ت ٣٩٥ هـ) على ضربين: مذموم وآخر محمود، والمذموم هو "إدخالك في الكلام لفظا لو أسقطته لكان الكلام تاما" [4]، وأما الضرب المحمود، فهو حشو مليح، وهو ما أطلق عليه ابن المعتز اعتراض كلام في كلام [5].

ويفيد الشراح من إنجازات أسلافهم وتصوراتهم لمصطلح الحشو وأثره في المعنى، فراهم يوهون بهذا الحشو المحمود في أكثر من موضع، من ذلك مثلاً تعليق المرزوقي على بيت آخر: (الطويل)

وَتُثْمِرُ عِنْدَ نُجْحٍ غَبِنْتُ حَدِيثُهَا ... وَعِنْدَ جَبَلِيٍّ ظَنٍّ وَعِنْدَ فَزَعِيٍّ مِصْدَرِ

"وقوله "غبنت حديثها" دعاء لنفسه وعليها، وهو من الحشو الحسن. ومثله في الدعاء وحسن الموقع قول الآخر: (السريع)

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبَلَّغْتُهَا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانِ "[6]

كما أفصح الشراح عن تأثير هذا الحشو في المعنى، وبيان مقاصده، والأسلوب المتوخى في ذلك؛ فلفظ (فاعلمن) في قول المرار بن سعيد : (الطويل)

إِذَا شِئْتَ يَوْمًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةً ... فَبِالحِلْمِ مِنْهُ لا بِالتَّسَرُّعِ وَالشَّتْمِ

وَلِلْحِلْمِ خَيْرٌ فَاعْلَمَنَّ مَغَبَّةً ... مِنَ الجَهْلِ إِلا أَنْ تَشَتَّمَ مِنْ ظُلْمِ

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ١٣٨).
(٢) فطر: محدي وهبة، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ١٩٨٤ م، ص ١٥٠.
(٣) نصار: جابر عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩ م، ص ٩٤.
(٤) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص ٤٨.
(٥) فطر: نفسه: ص ٤٩.
(٦) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٨٧٤)، (٢ / ١٨٧٧).

"حشو. فإن قيل: كيف اختير هذا البيت بهذا الحشو، والمتكلم إذا استعمل في كلامه مع المخاطب أعلم وأسمع وما يجري مجراهما، عد ذلك منه عيا؟ قلت: إن هذه اللفظة في هذا المكان محتاج إليها في عمدة المعنى المقصود، وإن ما أشرت إليه إنما يكون زوائد وفضولاً لا يحتاج إليه، فإذا وصل المتكلم بها كلامه مستعيناً بها عد منه خطلاً وعيا، وهو في هذا المكان وصاه بالفكر فيما أورده والتبين له، وبمعرفة الحلم ووقته حتى يدري كيف يأخذ به. فقوله: فاعلمن، فاعرفن، ومفعوله محذوف، والمراد فاعلمن الحلم ومغبته، فأطلق. رجع فيما أشار به مطلقاً، واستثنى في كلامه فقال: إلا أن تنفر من ظلم يركبك، وحضيضة تنالك؛ فإن الجهل في ذلك الوقت أرجح في الاختيار من الحلم، إذ كان صدم الشر بالشر أقرب، ودفع الجهل بالجهل أحلم" (١).

ج- الإيجـــاز:

والإيجاز هو "أن يكون اللفظ أقل من المعنى، مع الوفاء به" (٢)، كان العرب لا يميلون إلى الإطالة والإسهاب، ويعدون الإيجاز هو البلاغة (٣).

وهو على قسمين: إيجاز قصر: وهو "تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني" (٤)، ويسمى كذلك إيجاز البلاغة، والقسم الآخر: إيجاز الحذف: ويكون "بحذف بعض الكلام، تخفيفا لقوة الدلالة على معناه" (٥).

ولم يخرج الشراح عن دائرة من سبقهم في تحديد مفهوم الإيجاز، عند وقوفهم على بعض أنواعه بالشرح والتحليل، ونظرا لأن الإيجاز يتأسس عنه علاقة تركيبية جديدة، تحتاج مسلكا تأويليا ملتويا، وفق حلقتين "حلقة" فهم "تخصص الشارح، وحلقة "إفهام" ترتبط بالمتقبل" (٦)، توجه الشراح إلى بسط المعنى الشعري للمتلقي، موضحين موضع الحذف فيه والغرض منه، مناقشين عن الشعراء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، مفصحين عن المعاني التي قد تتخفى وراء الحذف.

من ذلك - مثلاً - اتجاه الشاعر نحو الاختصار في الكلام، بحيث يعبر قليله عن كثيره، وتقدير الجمل المحذوفة، ولتأمل قول المرزوقي - في شرحه - في بيت شاعر الحماسة: (حسان بن نشبة) (الطويل)

سَـــعَوْا نَحْـــوَ قَتْـــلِ القَـــوْمِ يبتَزُونَـــهُ بِأَســـيافِهِمْ حَتَّـــى هَـــوَى فَتَقَطَّـــرا

"في الكلام اختصار، كأنه قال: ابتدروه بالأسياف وضربوه حتى سقط فحذف ضربوه" (٧).

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. حماسية (٤٠١)، (٢ / ١١١٩).
(٢) د/أحمد مطلوب، ود/كامل حسن البصير: البلاغة والتطبيق، جامعة الموصل، مطابع دار الكتب، الموصل، ١٩٨٢ م، ص ١٧٩.
(٣) د/أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٣م، (١ / ٣٤٤).
(٤) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص ١٧٥.
(٥) بدر الدين بن مالك: المصباح في المعاني والبيان والبديع، حققه وشرحه ووضع فهارسه د/ حسني عبد الجليل يوسف، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٨٩ م، ص ٧٤.
(٦) د/أحمد الومرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٣٥.
(٧) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١١٣)، (١ / ٣٣٨، ٣٣٩).

ولا يتنافى اهتمامهم بالإيجاز وتقديرهم له، اهتمامهم كذلك بالإطناب، وليس أدل على تقدير الشراح لقيمة الإيجاز والإطناب معا في الكلام، من قول المرزوقي في معرض حديثه عن الفرق بين الإطناب والإيجاز "من عرف الفرق بين الإطناب والإيجاز، وبين التطويل والتقصير، وعلم أن الإطناب تفخيم وتكميل، كما أن الإيجاز تخليص وتهذيب، وأن التطويل زيادة على الكفاية، وذهاب عن غاية الحاجة، كما أن التقصي قصور عن الحد المرتاد، ووقوف دون مدى المراد، حمد الإطناب والإيجاز لما نالهما من سهام البلاغة، وذم التطويل والتقصير بما فاتهما من أقسام الفصاحة" (١).

د- سلاسة اللفظ و حسن الطبع:

بأن يكون الكلام سهل التناول، ميسر الإدراك. وفيه جانبية الصدق والبساطة وموافقة الفطرة واستحابة الطبع، إلى جانب "السلامة من التعقيد المعنوي أو السلامة من الخطأ في استعمال اللفظ: إما لقصور في معرفة اللغة وإما لغفلة كاستعمال اللفظ الدال على الأعم في حين إرادة الأخص" (٢)، فإذا ما خالف اللفظ تلك المواصفات خرج عن شروط الإجادة عند البلغاء "كأن يكون اللفظ وحشيا، أو غير مستقيم، أو لا يكون مستعملا في المعنى المطلوب، فقد قال عمر رضي الله عنه في زهير: لا يتتبع الوحشي ولا يعاظل في الكلام، أو يكون فيه زيادة تفسد المعنى أو نقصان، أو لا يكون بين أجزاء البيت إلتئام ..." (٣).

وقد أثنى الشراح على ذلك الملمح فيمن تعرضوا لهم من الشعراء، يتضح ذلك في تعليق المرزوقي على قول المقنع الكندي: (الطويل)

ولا أَدْعِـــلُ الجيْـــدَ القَـــبيحَ غُـــيُوبَهُمْ ... ولَـــيْسَ بِمَسْمُوعٍ مِـــنَ الْقَـــوْلِ مَخْبَـــلُ الجِقْـــدَا
لهِـــمْ جُـــلُّ مَـــالِي إِنْ تَتَـــابَعَ لِـــي غِنًـــى ... وإِن قَـــلَّ مَـــالِي لَـــمْ أُكَلِّفْهُـــمُ رِفْـــدَا
وإِنِّـــي لَعَبْـــدُ الـــضَّيْفِ مَـــادَامَ نَـــازِلًا ... ومَـــا شِـــيمَةٌ لِـــي غَيْرُهَـــا شِـــيمَةُ العَبْـــدَا

"أثبت لنفسه الرياسة عليهم في هذا البيت. والمعنى أنه متى استعطفوه عطف عليهم، وإن استقالوه أقالهم وأسرع الفيئة لهم، غير حامل الضغن واللجاج معهم، ولا معتقداً انتهاز الفرص فيهم، لما اكتمن من عوادي الحقد عليهم ... فليتأمل الناظر في هذا الباب وفي مثل هذه الأبيات، وتصرف قائلها فيها بلا اعتساف لا تكلف، وسلاسة ألفاظها، وصحة معاقدها، فهو عفو الطبع ، وصفو القرض" (٤).

ومثله قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، ويقال إنه للسموءل بن عاديا اليهودي : (الطويل)

عَلَوْنَـــا إِلَـــى خَيْـــرِ الظُّهُـــورِ وَحَطَّنَـــا ... لِوَقْـــتٍ إِلَـــى خَيْـــرِ البُطُـــونِ نُـــزُولُ

حيث "يصف ترددهم في شرف المصعد والمنحدر، وكرم العنصر والمتحول، كما ذكر طهارة المنكح والمولد، وجلالة المعقل والمستقر، فيقولك علونا في خير الظهور، أي حصلنا في أعلى المراتب من ظهور أكرم

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (٢ / ١٨٨٥).
(٢) محمد الطاهر بن عاشور: شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، ص ٧١.
(٣) المرزوقي: مقدمة شرحه لديوان الحماسة، ص ١٥.
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٤٣٨)، (٢ / ١١٨٠).

الأباء، وحدرنا منها لوقتٍ معلومٍ - يشير إلى وقت الأظهار - نزولٌ إلى خير البطون من أشرف الأمهات. والمعنى لنا كرام الأطراف. وهذه الأبيات إذا تؤملت أدى التأمل منها إلى سلامة اللفظ والمعنى من كل معاب. وحصول الفخامة والجلالة لها في كل جانبٍ وبابٍ" (١).

هـ - ملاءمة الألفاظ للغرض المقصود:

وهو ما عبر عنه الثعالبي بقوله: "ولا أمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحدٍ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كالتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتب كلاً مرتبته وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا انتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه، فإن المدح بالشجاعة والبأس، يتميز عن المديح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام، ولكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه" (٢).

فالشارح يكشف عن اهتمام الشاعر بالتلاؤم بين الألفاظ وموضعها؛ طلبا للانسجام المعنوي. "إن الراوي / الشارح لم يركّز نظره عند الزاوية اللغوية المعجمية بل فطن للقصد الذي رمى إليه الشاعر؛ لأن هذا الشاعر يتعامل مع العلامات اللغوية باعتبارها رموزا ذات سياق يخلع عليها معاني من عنده، فيزعزع الثابت ويؤسس شعريا للمتحول اللغوي. إن الشعر هو فعل في اللغة بالغة وعلى الشارح أن يتقبل حط تلك الضرورة في انتظامه وانحلاله" (٣).

وقد نبه الشراح على ذلك في أشعار شعراء الحماسة، فأثنوا عليهم لأنهم نظموا بين الألفاظ والغرض المقصود منها، كما عابوا عليهم مخالفتهم هذه الملاءمة. ويتضح ذلك من تعليق المرزوقي بالثناء على بيت آخر: (البسيط)

يـــومَ ارْتَحَلْـــتُ بِرَحْلِـــي قَيْـــسَ بْنَ زُهَيْـــرٍ ... والقَلْـــبُ مُنْيَـــةُ والقَلْـــبُ مُشْـــتَغِلُ
ثُـــمَّ انْصَـــرَفْتُ إِلَـــى بَـــعْضَى الأَبْطُـــحِ ... إِبْـــزَ الخَـــوَارِجِ الفَـــوْدِيِّ وهْـــوَ مُعَقَّـــلُ (٤)

إذ يقول: "قوله (ثم انصرفت إلى نضوى) تتميم لبيان حاله فيما انعكس عليه من قصده، وفسد من همه، فقال: ثم رجعت إلى بعيري لأتيمه في إثر الظعائن الباكرة، وهو مشدود بعقالة لم أحله. وهذا غاية ما يقال في انحلال العقدة، واسترخاء المسكة، وسوء الضبط وانقلاب القلب ... وقد سلك أبو تمام هذا المسلك فقال: (البسيط)

أَصَـــدَّنِي بِـــرُهَيْمٍ أَيَّـــامَ فُـــرْقَتِهِم ... هَـــلْ كُنْـــتَ تَغْـــرِفُ بِـــرًّا يُـــوبِكُ الصَّـــمَمَا
نَـــأَوْا فَظَلَّـــتْ لَوَشْـــكِ البَـــيْنِ مُقْلَتُـــهُ ... تَشْـــدُو نَجِيفًـــا وَيَشْـــدُو جِـــسْمُهُ سَـــقَمَا
أَظَلَّـــهُ البَـــيْنُ حَتَّـــى إِنَّـــهُ رَجُـــلٌ ... لَـــوْ مَـــاتَ مِـــنْ شُـــقَّةِ البَـــيْنِ مَـــا عَلِمَـــا" (٥)

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ١١٩).
(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م، ص٩ ، ٥.
(٣) د/أحمد الوردني: شرح الشعر عند العرب، ص٩٩.
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٤٥٨)، (٢ / ١٢٢٦)، ومعنى أبطحه أهيمه. والنضو: البعير المهزول. والمعقل: مراكب النساء الظلعانة.
(٥) نفسه: (حماسية (٤٥٨)، (٢ / ١٢٢٦).

وفي موضع آخر وجه ابن جني ألفاظ أحد الأبيات بما يتلائم مع الغرض المقصود الذي قصده الأعرج المعني وهو قوله: (الرجز)

لا جزَعَ اليوم على قُرْبِ الأجَلْ

إذ "لا يجوز أن يكون معنى على هنا معناها في قولك جزعت على كذا، أي أشفقت عليه، لأنه غير الغرض المقصود. ألا ترى أن معناه لا جزع اليوم من الموت، على أن الأجل قريبٌ منا ، فإذا قرب منا ولم نجزع منه فما ظنك بنا إذا بعد عنا" (١).

و – المؤاخاة بين الألفاظ:

وهي من شروط جودة الأسلوب، ويريدون بها المناسبة من طريق الصيغة "ليست القيمة الصوتية للكلمة في سمتها الذاتية بل فيما تحدثه من علاقات انسجام مع غيرها" (٢).

وقد عمد الشراح في إطار سعيهم إلى توضيح هذا الجانب إلى التعامل مع المعنى تحيينا تبسيطا وكشفا . من ذلك تعليق المرزوقي على قول رويشد بن كثير الطائي: (البسيط)

يأيُّها الراكبُ المُزْجِي مَطِيَّتَه سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ

"وإنما قال ما هذه الصوت، والصوت مذكر، لأنه قصد به إلى الصيحة والجلبة. وهذا كما قال حاتم: (الطويل)

أُنَاوِيُّ قَدْ طَالَ التَجَنُّبُ والهَجْرُ وقَدْ عَذَرَتْنِي فِي طِلَابِكُمُ العُذْرُ

يريد المعذرة. وكما قال الآخر: (الطويل)

وكَانَ مَجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ

فأنث الشخوص لأنه قصد بها إلى النفوس. وحكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سمع بعضهم يقول: جاءته كتابي فاحتقرها. قال أبو عمرو: فقلت: أتقول جاءته كتابي ؟ قال: نعم، أليست هي صحيفة ؟ وقد قيل : لما كانت الشخوص شخوص النساء أنث العدد" (٣).

وقول غلاق بن مروان: (الطويل)

فَأَضْحَتْ زُفَيْرٌ فِي السَّجِينِ التِي ضَمَّتْ وَمَا بَعْدُ لا يُذْعَنْ إلا الأَشَائِمَا

"أنث الفعل لأن المراد بذكر زهير القبيلة بأسرها" (٤).

---

(١) ابن جني: التنبيه على مشكل أبيات الحماسة. ص ١٠٨.
(٢) د/أحمد الودرني. شوح الشعر عند العرب، ص ٦٨
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة (/ ١٦٦ ، ١٦٧).
( ) نفسه (/ ٤٠٧).

و من باب أن بعض الشيء وقع عليه اسم جميعه، نجد أبو الخطمش أبو عبيدة في قوله: (المتقارب)

وسَـــــاقٍ مُخَلْخَلُهَـــــا حَنَـــــشَنٌ ... كَـــــمَاقِ الجَـــــرَادَةِ أو أَخْمَـــــشُ [1].

لـ "أنث والمخلخل مذكر لأن المخلخل من الساق، والساق مؤنثة، وبعض الشيء إذا أطلق عليه اسم الكل أجري في الأحوال مجراه إلا أن يمنع مانع. وهذا كما قال الآخر: (الطويل)

كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ من الدَّمِ

لأن صدر القناة قناة، كما أن المخلخل يقال له الساق" [2].

هكذا ينبغي على الشاعر - كما كشف الشراح - أن يراعي هذا الجانب لأنه " إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها ممتلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات" [3].

ز- موافقة العرف العربي الصحيح في التأليف والإعراب:

وهو ما حرص الشراح على إبرازه أثناء تحليلهم للنصوص وتعرضهم للألفاظ المستعملة، لما له من أهمية في إدراك البنية النحوية على وجهها الصحيح، ومن ثم تحديد المعنى المقصود، إذ "أن في ضبط الجانب النحوي تأمينا للشارح من زلل الفهم وانحراف التأويل لذلك فهو مدعو إلى التمكن من العلوم النحوية ليزيح ركام الغموض عن المعنى المتوارى وراء علاقات تركيبية متشابكة بل متعانقة حد الإبهام. فالشارح لا يكفيه فهم الكلمة حدولا إذ عليه كشف معناها توزيعيا أي في شبكة علاقاتها، وهو درب لا تضمنه إلا معارفه النحوية الراسخة ولا أدل على ذلك في هذا المقام من تعويل الراوي / الشارح على العلاقة الإعرابية وصولا إلى المعاني" [4].

وقد أفصح كثير من الشراح عن مدى ما للقواعد النحوية والتوجيه النحوي من أهمية في استقامة المعنى وفساده، لمن ذلك ما نجده في شرح قول الأشجع السلمي: (الطويل)

فَاصْبَغْ فِي لَحْدٍ مِنَ الأَرْضِ مَيِّتًا ... وكَانَتْ بِهِ خَيْلًا تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ

حيث يقول المرزوقي: " قوله "في لحد" موضع نصب على أن يكون خبر أصبح، وانتصب "ميتا" على الحال، وكذلك قوله "حيا" لتنتصب على الحال. ولا يجوز أن يكون "الحد" في موضع الحال وميتا خبر أصبح، لأن ميتا من الصدر في مقابلة حيا من العجز، ولا يكون ذلك إلا حالا، فكذلك يجب أن يكون ميتا، وإلا اختلفا وفسد المعنى" [5].

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ١٨٨١)، الوكب: لسل الفخذ الذي عليه لحم الفرج من المرأة وملتقى الذكر من الرجل والتنقد: السمواء بين الحمارين. والخشن والخمش والكدح نظائر. والحشة: الناقة.

(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ١٨٨٣).

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين (١ / ٦٦).

(٤) د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٧٤، ٧٥.

(٥) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، حماسية (٢٨٠)، (١ / ٨٥٧ ، ٨٥٨).

لذلك وجدناهم حينا يثنون على شعراء الحماسة لأنهم التزموا هذا العرف بصورة أو بأخرى، كتنكير (دنيا) - مثلاً - في قول العائم بن رباح المري: (الكامل)

إِنِّـــي مُقِـــيمٌ مَـــا مَلِقْـــتُ فَجَاعَـــةٌ أَجْـــزَعْ وَتُثْنِيـــنِي تَلَفُّـــعْ

"كان الواجب أن يقول ومنفعة لدنيا حتى يكون لفقاً للأول ودنيا فعلى وحقها أن لا تستعمل إلا مضافة أو بالألف واللام كتولك الصغرى وصغراهن، إلا أن العرب استعملتها نكرة وهي تأنيث الأدنى وسميت لدنوها" (١).

وليس التزام الشعراء بهذا العرف وحده ما يلتفت إليه الشراح، بل مخالفته كذلك، فكما أثنوا عليهم فقد عابوا عليهم أيضًا في مواضع خالفوا فيها هذا العرف الفصيح؛ من ذلك قول رجل من بني أسد: (الطويل)

وَمَـــا أَنَـــا بِـــالنَّكْسِ الـــدَّبِرِّ وَلا الْـــوَذِي إِذَا صَـــدَّ عَنِّـــي ذُو الغَـــوَايَةِ أَحْـــزَبُ

"كان يجب أن يقول: ولا الذي إذا صد عنه ذو المودة يحرب، حتى يكون في الصلة ما يعود إلى الموصول، لكنه لما كان القصد في الإخبار إلى نفسه وكان الأخر هو الأول، لم يبال برد الضمير على الأول وحمل الكلام على المعنى، لأمنه من الإلتباس. وهو مع ذلك قبيح عند النحويين، حتى إن أبا عثمان المازني قال: لولا اشتهار مورده وكثرته لرددته. ومثله: (الرجز)

أَنَا الَّذِي سَمَتْنِي أُمِّي حَيْدَرَه" (٢).

وغيرها الكثير من الشواهد التي تعرض لها الشراح بالنقد والتحليل، منوهين عن كيفية تعامل الشاعر مع اللغة على محورين أساسيين هما المعيار والاستعمال، والوقوف على ما وافقهما وخالفهما من المفردات والتراكيب التي سلقها واستخدمها الشاعر في أشعاره، والتي تم التطرق إلى الحديث عن أشكال منها مسبقا أقصد: الضرورات الشعرية والسماع والقياس، وتوضيح آراء الشراح فيها، وتعليقاتهم عليها.

ح - فصاحة التركيب:

يقول المرزوقي في مقدمته النقدية النفيسة التي صدر بها شرحه لديوان الحماسة: "فمن الفقاء من يقول فتر الألفاظ وغررها كجواهر العقود ودررها فإنا وسم إغفالها بتحسين نظومها وحلي أعطالها بتركيب نثورها، فراق مسموعها ومضبوطها، وزان مفهومها ومحفوظها، وجاء ما حرر منها مصفى من كدر العي والخطل، مقوما من أود اللحن والخطأ، سالما من جنف التأليف، موزونا بميزان الصواب، يموج في حواشيه رونق الصفاء لفظا وتركيبا - قبله الفهم والتذ به السمع. وإذا ورد على ضد هذه الصفة صدئ النهم منه، وتأذى السمع به تأذي الحواس بما يخالفها" (٣).

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة (٤ / ٩٦).
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٢٦٧).
(٣) نا به الحماسة ص ٩.

وهو ما نفهم منه أن فصاحة الكلام حاصلة بالتبع من فصاحة اللفظ فالكلام لا يكون فصيحا إلا بفصاحة كلماته وبفصاحة تراكيبها عند اجتماعها، "فأما فصاحة الكلمات فلأنها أجزاء الكلام، فتعين أن تكون الأجزاء فصيحة ليكون مجموع الكلام فصيحا" [1]، ومعنى هذا أن ما ينطبق على اللفظ من شروط ينطبق كذلك على التركيب مع بعض الإضافات التي تميز الكل عن الجزء، والمجموع عن المفرد.

وقد أشرنا آنفا إلى فصاحة الكلمة وشروطها [2]، أما عن فصاحة الكلام وتراكيبه فيقول عبد القاهر الجرجاني: "من المعلوم أن لا معنى لعبارات البلاغة والفصاحة والبيان التي ينسب فيها الفضل والمزية إلى اللفظ دون المعنى غير وصف الكلام بحسن دلالته وتمامها، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من نبل القلوب؛ ولا جهة لاستكمال هذه الخصال غير أن يؤتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو به أخص، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية" [3].

وقد كشف الشراح عن فصاحة التراكيب التي استعملها شعراء الحماسة، وأظهروا إعجابهم بها وتقديرهم لها كما يتبدى لنا من خلال تعليقاتهم وتحليلاتهم؛ فـ (نستوقد النبل) في قول بعض بني بولان من طيئ: (السريع)

نَسْتَوْقِدُ النَّبْلَ بِالحَضِيضِ وَنَصْـ ـطَادُ نُفُوسًا بِنْتُ عَلَى الكَرَمِ

"من فصيح الكلام، كأنه جعل خروج النار من الحجر عند صدمة النبل استيقاداً منهم. والوقد، توسعوا فيه حتى قيل لمن وقاد. فإن قيل: هلا قال نستقدح النبل، فكان أصح؟ قلت: الذي قاله أفصح؛ وكم قيل زندٌ مبقادٌ، إذا كان سريع الوري" [4].

وقول عمرو أيضا: (الرمل)

وَلَقَدْ أَجْمَعُ رِجْلِي بِهَا خَشْيَةَ الخَوْتِ وَإِنِّي لَفَزُوزُ

"هذا كلام من جمع إلى شجاعته وإقدامه حذراً وحزامة، وإلى حرأته وتهوره رفقاً وأصالة، ثم يكون عارفاً بوقت كل منها، وبالحالة الموجبة لاختياره بعضها. وأجمع رجلي ، أي أستحث فرسي. وهو من فصيح الكلام، ومن العبارة التي تصور المعنى" [5].

وفي قول القتال الكلابي (أملت له) في بيته: (الطويل)

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتَهٍ أَمَلْتُ لَهُ كَفِّي بِلَدْنٍ مُقَوَّمِ

"أي من أجله كفى بلدن، من فصيح الكلام، وبليغ الكنايات" [6].

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور: شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام: ص ٣٢.
(2) انظر: ص ٩٠ من الكتاب.
(3) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه/محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط٣، ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م، ص ٣٥، وللمزيد عن فصاحة التركيب وشروطه، انظر: ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ١٢٠-١٨٧، وعبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح: ١٤/١ وما بعدها، والقلقشندي: صبح الأعشى: (٢٥٤/٢، ٢٥٥، ٢٦٠).
(4) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٣١)، (١ / ١٦٥).
(5) نفسه: حماسية (٣٥)، (١ / ١٨١ ، ١٨٢).
(6) نفسه: حماسية (٤٣)، (١ / ٢٠٢).

كانت هذه هي أهم الجوانب والمسائل الخاصة بألفاظ وتراكيب شعراء الحماسة، التي تعرض لها الشراح بالنقد والتحليل.

وهكذا حلق الشراح في أجواء النصوص الشعرية لديوان الحماسة، وأظهروا عن عمق ثقافتهم، وتبحرهم و فهمهم للكثير من الخصائص الفنية الدقيقة التي تشتمل عليها اللغة بمفرداتها وتراكيبها، وليس أدل على ذلك من تحليلاتهم وتعليقاتهم التي كشفت عن كثير من خفايا معاني الشعر وأسرار الكلام. منوهين عن مظاهر تميز شعراء الحماسة على المستوى الفني، معبرين عن ذلك الإعجاب والترحيب بتعليقات وعبارات مختلفة.

• • •

المبحث الثاني: المعاني:

اهتم الشراح بتوضيح معاني البيت الشعري؛ وحرصوا على ذلك كل الحرص حتى ليبدو وكأن معنى البيت هو الهدف النهائي الذي يحشد الشراح من أجله كل طاقاتهم اللغوية والدلالية والبلاغية، بشكل جعل معه شارح كالمرزوقي يزخر شرحه - بالإضافة إلى ما سبق - "بالتفاتات كثيرة إلى المعاني الثانوية في الألفاظ والتراكيب، أو ما يسميها الجرجاني (معنى المعنى)، وهذا المعنى الثاني هو الذي يعطي للشعر مذاقه الخاص، فالمعاني الأول أو أصول المعاني قد تصلح أن تكون مفتاحا نلج من خلاله إلى عالم النص، لكن الاكتفاء بها قد يميت النص كما فعل المرزوقي أحيانا مع بعض القصائد، وإذن فإن دور أصول المعاني أن تقودنا إلى معنى المعنى، ثم إلى إيحاءاته لتتسع هذه العناصر الثلاثة معا شكل المعنى الذي يتميز به الشعر عن النثر" [1]. هناك عناصر قارة في شرح المعاني عثرنا عليها عند الشراح جميعا، الذين قامت عليهم الدراسة، وأبرز تلك العناصر اهتمام الشراح بتوضيح معاني البيت الشعري، وميلهم إلى سلخ البيت عند تفسيره، بنثر معنى البيت الشعري، ورد المعاني إلى أسبابها و هي أسباب "تاريخية موصولة بالقول الشعري على محور العلاقة المرجعية ولكنها منفصلة عنه على محور العلاقة الإنشائية" [2]، إلى جانب العديد من العناصر التي سيكشف الحديث التالي إماطة اللثام عنها، والتي من أهمها:

أولاً: نثر المعنى:

عمد معظم الشراح إلى نثر معنى البيت حتى "يتاح فهمه في إطار منحى تبسيطي واضح، وليس له من فضل إلا المحاكاة بعبارة تبدو أحيانا أطوع من عبارة الشاعر، وهي محاكاة للمعنى بالتلخيص والتوسيع" [3]، وغالبا ما يستهل ذلك بقولهم: "والمعنى"، أو "أي"، أو "معنى البيت"، أو "المراد"، أو "يريد"، أو "كأنه يقول"، أو"يقول"، أو"معناه"، إلى غيره من كلمات وعبارات تؤدي نفس المعنى.

كما جاء في شرح مهاء الدين عبد القادر بن قصان في بيت بعض شعراء بلعنبر واسمه قريط بن أنيف: (البسيط)

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

"والمعنى أن الشاعر يصف قومه بالجبن أي ليسوا في شيء مع كثرتهم إذا دعي الأمر النازل وإن كان هينا" [4].

وفي نثرهم للمعنى يحول الشراح - في كثير من الأحيان - على الجانب المعجمي، فتراهم يمهدون بتفسير ألفاظ وتراكيب البيت معجميا، ونظرا لأن "التعويل على الجانب المعجمي وحده قد لا يتيح تطويق المراد من المعنى" [5]، فإنهم قد يكتفون - في بعض الأحيان - بنثر معناه فقط.

---

(١) د/أحمد مجيرة: شرح المرزوقي للظرفية والتطبيق، ص ٩٩.
(٢) نفسه: ص ٩٤.
(٣) د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٩٤.
(٤) مهاء الدين عبد القادر بن قصان: الرصافة الثقافية ومتصورة ليلى العامرية، ص د.
(٥) د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٩٩.

وإذا كان البيت مزدوج البنية، تختلف بنيته السطحية عن بنيته العميقة، اتخذ منحى التحليل المعنوي طابعا تأويليا "إذ يحتمل الشاهد أو النص أكثر من قراءة. ولكن الشارح ينصص على واحدة دون أخرى وفق قاعدة القصدية؛ .. لذلك لا محيد للشارح عن الانطلاق من المبنى لاكتشاف المقصد مما يدل على أن اعتماد الأبنية التحويلية هو وحده الذي يؤمن السبيل إلى المقاصد و يقي الشارح عثرات الفهم" [1]، بهدف الوصول إلى مستوى الكشف عن القصد. وهذا الأمر التزم به النمري بخاصة؛ فنرن عند شرحه لكثير من الأبيات معناها على المستويين السطحي والعميق.

ومثال واحد هنا يكفي للدلالة على المراد؛ نقول الهذيل بن مشجعة: (الكامل)

وإذا تنُبِّئتَ الجلابَ فإنَّهُ قُرِنَتْ صَحيحتُنا إلى جَرْبَائِهِ

شرح النمري البيت السابق قائلا: " "الجلائف"، السنون، و"السنة" عند العرب الجدب. وقوله: "قرنت صحيحتنا إلى جربائه"، أي شدتا في قرن، وهو حبل يلقى في عنقي البعيرين فيكونان معًا، والعرب إذا حرب البعير عندهم أفرد وبوعد، لئلا يعدى الإبل على مذهبهم. يقول: نحن لا نفرد ناقة ابن عمنا الجربى من ناقتنا الصحيحة، مشاركة له واختلاطًا. وهذا مثل، وإنما المعنى: أنا نخلط فقره بغنانا، وغثه بسميننا، وطالحه بصالحنا"[2].

ويمكن أن نلاحظ من هذا الشرح بعض الملاحظات التي تميّز بها شرح النمري بشكل خاص، وهي:

- إن النمري مقتصد جدًا في التفسير المعجمي لألفاظ البيت وتراكيبه.

- عرض المعنى منثورًا بعد الانتهاء من التفسير المعجمي، وقد يتم التفسير المعجمي في أثناء نثره المعنى.

- تمّم المعنى السطحي للبيت مسوقًا بقوله: "يقول"، وقد حاكى فيه البيت الشعري، وسائر الشاعر في كثير من ألفاظه وتراكيبه. ثم أتبع المعنى السطحي بالعميق، مسوقًا بقوله: "وإنما المعنى".

- أجرى النمري على المعنى لونا من التوسيع، وهو ضرب من التوليد الدلالي ينطلق مما يمكن تسميته بالمعنة النواة، في اتجاه أشكال من التوسعة تتمثل في معان فروع هي الوحدات المعنوية الدنيا التي تؤثث فضاء الدلالة مجتمعة متضافرة [3].

- اهتمّ النمري اهتمامًا كبيرًا بنثر المعنى مقارنة بالتفسير المعجمي للألفاظ.

وإذا كان النمري قد حرص في تفسيره للمعنى إبراز المستوى السطحي والعميق له، وما يتصل به من تأويلات، فإن من الشراح من لم يبعد كثيرا عن ذلك المسلك سوى ما قد نجده من التوسع في بعض القضايا اللغوية، أو البلاغية، والأخبار، مع بعض اللمحات التي تفصح عن مقصد الشاعر، أو تشير إلى بعض العيوب المتصلة بشعره من حيث الألفاظ والمعاني، ومنهم من لم يلزم نفسه بتقديم تفسير سطحي أو عميق للمعنى، وانصب جل اهتمامه على الجانب المعجمي في تفسير الأبيات والنصوص الشعرية.

---

(1) د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٩٨ ، ٩٩ .
(2) النمري: معاني أبيات الحماسة: حماسية رقم (٧٤٥)، ص ٢٢٦ .
(3) انظر د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٩٨ .

إن تعامل الشراح مع المعنى على هذه الصورة، قد اتخذ "بعدا تفسيريا تعليميا سعى الراوي / الشارح بمقتضاه إلى محاكاة المعنى بطريقته الخاصة" (١).

ثانيا: توضيح المعنى:

إن عرض المعنى بأساليبه المختلفة هو عبارة عن روافد تسعى تبرز فيه شخصية الشارح ومدى إدراكه لمعاني الشعر، ولكن مصبها هو المعنى "فالشرح الذي يقف دون المعنى وإن أسهب صاحبه في التنويعات الفنية يظل مجرد استعراض لغوي مجاني معزول. إن المعنى هو قلب الشرح ومداره فعليه تُعقد الإفادة وبنى المقصد" (٢).

إن عين الشارح لا تسدر عن المعنى الشعري وأساليب توضيحه، وإن ضن - في بعض الأحيان - على تلك الأساليب بالوقفة الوئيدة، إلا أنه يضمنها شرحه - أحيانا - دون الإشارة إليها، فهي عنده في حكم البديهي أو المسلّم.

ومن أهم تلك الطرق والأساليب التي لجأ إليها الشارح - بالإضافة إلى الجانب المعجمي الذي لا يتيح تطويق كامل المعنى - في توضيح المعنى:

أ- التمهيد للمعاني بإيضاح الجو العام للنّص من خلال ذكر مناسبات القصائد وسبب قول الشعر (٣). وذلك بالبحث فيما وراء النص، وما حوله، والاستعانة بهما في توضيح معنى الشاعر ومقصده، وهو ما حرص عليه الشراح حرصا شديدا، فكانوا يتكرون على رأس كل قصيدة مناسبتها وسبب إنشادها. وربما فعلوا ذلك في أثناء شرحها، كما فعل ابن فارس - مثلا - عند شرحه أبيات الحماسة رقم (٥٠)، إذ قال: "وقال رجل من بني تميم، وهو جد النضر بن شميل، وطلب منه ملك من الملوك فرسا يقال لها: سكاب، فمنعه إياها" (٤).

وقال الشنتمري مشيرًا إلى مناسبة الحماسية رقم (٦٨) في أثناء شرحه لها بقوله: "وقال بعض بني أسد في بئر اقتتلوا عليها" (٥)، أو قوله في الحماسية رقم (٢٦٥) في أثناء شرحه لها بقوله: "وقال أبو خراش يرثي أخاه، ويذكر نجاة ابنه خراش" (٦).

وقد يكون هناك إشارات ولمحات كثيرة في الأبيات لا يستطاع فهمها من داخل القصائد نفسها، وإذن لا مناص للشارح من اللجوء إلى التاريخ لإضاءة هذه الإشارات واللمحات والكشف عما غمض فيها. فالشارح من خلال ذلك "يحاول فك رموز النص التاريخية، وكشف ما غمض فيه من إشارات، وهذا يساعد في النهاية على تقديم إضاءة كافية للنص" (٧).

---

(١) د/أحمد الوبراني: شروح الشعر عند العرب، ص ١٠٠ .
(٢) نفسه: ص ٨٩ .
(٣) د/السيد حمدان: قضايا البلاغة والنقدية في شروح القدماء على شعر أبي العلاء، ص ٢١٩.
(٤) ابن فارس: كتاب الحماسة: ص ٧٣.
(٥) الشنتمري: معاني أبيات الحماسة: ص ٦٦.
(٦) نفسه: ص ١١١.
(٧) د/أحمد صبرة: شرح المرزوقي النظرية والإجراءات: ص ٣٩.

من ذلك ما شرحه المرزوقي، والتبريزي، وابن فارس، من ملابسات يوم الهرير [1]، فكشف الشرّاح عن بعض أحداثه.

وفي ذلك يشرح المرزوقي قول الربيع بن زياد العبسي: (المتقارب)

وكُنّـــا قَـــوارِنَ يَـــوْمَ الهَريـــ ـــرِ إذْ مَـــالَ سَـــرْجُكَ فاسْـــتَقْنَعا

"يوم الهرير: معروف، وإنما قال: كنا قرنان هذا اليوم، لما كان عرف من جميل بلائهم، وحسن ثباتهم فيه ووفائهم، وليذكر تبريزهم حين نكصوا على أعقابهم، وقصروا من شأوهم، وذكر ميل السرج مثل، وقول "حرير" يشهد لذلك ويكشفه حين قال: (الكامل)

قُـــلْ لِلْجَبَنـــانِ إذا تَـــأَخَّرَ سَـــرْجُهُ فَـــلَنْ أَنْـــتَ مِـــنْ شَـــزَرِ المَنِيَّـــةِ نَـــاجِ

والمراد: اضطراب الأمر وفشل الرأي، وتمكن الخوف والدهش من المنهزم ونزوله عما يهم بركوبه" [2].

والشارح لم يكتف برصد ألفاظ الأبيات وتراكيبها معجميا أو تفسير معانيها، بل امتد تحليله ليشمل ما ارتبط بهذه الأبيات من أحداث شكلت معانيها، فكشف عن علاقة هذه المقطوعة ـ وعددها ستة أبيات ـ بأحداث هذه الموقعة، حيث جعل ما سبق ذلك من أبيات تمهيدا لها حين ذكر نار الفتنة التي أشعلها قيس بن زهير حتى إذا استعرت وتأججت، هرب وترك الشاعر يصطلي نيرانها، ثم وصف شجاعة الشاعر وقومه وإقدامهم، وليذكر تبريرهم حين نكصوا على أعقابهم، وقصروا من شأوهم، بما يوضح معالم هذه الأبيات ويجسد خلفيتها الحربية والعسكرية.

ب- إيضاح الجوّ الخاص لكل بيت [3].

كما فعل أبو رياش في شرح هذا البيت: (جري بن كلب) (الطويل)

فَـــلا تَظْلِمَنْهـــا يـــا ابـــنَ كُـــوزٍ فإنَّـــهُ غَـــدَا الشَّـــامِتُ مُـــذْ قَـــامَ النَّبِـــيُّ الجَوارِيـــا

إذ قال: "هذا رجل سأله ابن كوز أن يزوجه ابنته في سنة و"السنة"، الجدب، فردّه وقال له: قد غدا الناس البنات مذ قام النبي صلى الله عليه وسلم، فأنا أيضًا أغدو هذه، ولولا ذاك لكنت أندها كما كانت الجاهلية تفعل" [4].

والمرثي في بيت هشام أخو ذي الرمة: (الطويل)

تَعَزَّيْـــتُ عَـــنْ أَوْفَـــى بِفَـــيْلانَ بَعْـــدَهُ غَـــزَاءَ وَجَفَّـــتْ عَـــيْنُ مَـــلانَ مَنْـــزَعُ

"هشام هذا فجع بأخيه أوفى، وأتى عليه زمان مقاسيًا لآلام الفجيعة به، ثم أصيب بعده بعيلان ـ وهو ذو الرمة ـ ..." [5].

---

(١) "يوم الهرير" هو أحد أيام موقعة صفين، بل وأعظمها، قتل فيه خلق كثير من أصحاب معاوية رضي الله عنه، للمزيد انظر: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي: أيام العرب في الإسلام، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م، ص ٢٦٣ وما بعدها.

(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: ٢ / ٤٨٦

(٣) دامصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري: ص ١٨٥.

(٤) انظر: معاني أبيات الحماسة: ص ٦٤، حماسية رقم (٦٢).

(٥) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: ٢ / ٨٩٣ وما يليها

وما ذكره المرصفي عن قول نابط شرًا: (الطويل)

أقُـــولُ لِحَيـــانٍ وقَـــد صَـــرَّحَتْ لهـــمْ ... وطَـــابِي وَيـــوبِي ضَـــيْكُ الْجَحْـــرِ مَغْـــوُرُ .

من حديث بالقول: " "القول للحيان" يريد لبني لحيان بن هذيل بن مدركة ابن الياس. وهذا حديث جرى بينه وبينهم يوم رصدوه. وكان يشتار عسلا في غار لهم يأتيه كل عام حتى إذا ما جاء هو وأصحابه ونزلوا في الغار أغاروا عليهم فأفزعوهم وركنوا على فم الغار. فحركوا الحبل ثم قالوا له اصعد. فقال ألا أراكم. قالوا بلى. قد رأيتنا. قال فعلام أصعد. أعلى الطلاقة أم على الفداء. قالوا لا شرط لك قال: فأراكم قاتلي وآكلي حتماً. لا والله لا أفعل. وكان قبل ذلك قد أعد لذلك المضيق مخرجا نقب في الغار نقبا من خلفه، فجعل يصب العسل في ذلك النقب حتى بلغ منتهاه. ثم عمد إلى زق فشده على صدره. ثم لصق بذلك العسل. فلم يبرح يتزلق عليه حتى خرج سليما لم يصبه شيء. وكان بينه وبين موضع القوم مسيرة ثلاث ليال فذلك حديث ما نظمه في قوله (أقول للحيان. وقد صرحت لهم وطابي)"[1].

والبكاء والمرأة في قول أسود بن زمعة منكرًا: (الوافر)

أتَبْكِـــي أنْ يَـــضِلَّ لهـــا بَعِيـــرٌ ... ويَمْنَعُهـــا مِـــنَ النَّـــوْمِ الـــسُّهودُ

فَـــلا تَبْكِـــي عَلَـــى بَكْـــرٍ ولَكِـــنْ ... عَلَـــى بَـــدْرٍ تَقاصَـــرَتِ الْجُـــدودُ

ألا قَـــد سَـــادَ بَعْـــدَهُمُ رِجَـــالٌ ... ولَـــوْلا يَـــوْمُ بَـــدْرٍ لَـــمْ يَـــسُودُوا

أبان عنهما المرزوقي بما يوضح معالم الأبيات وما اتصل بهما قائلا: " كان السبب في قول الأسود هذا الشعر أن قريشاً كانت حرمت البكاء على أنفسهم لقتلى بدر، لئلا يشمت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بهم، وكان الأسود قد فجع بابنه زمعة، إذ كان من قتلى ذلك اليوم، فاقتدى بالناس في ترك البكاء عليه، فلقق له كانت له مشربةٌ فتنزه ومضى إليها فسمع بكاء امرأةٍ فقال لأصحابه: انظروا فإن كان البكاء قد حلل، حتى نبكي نحن أيضاً زمعة، فرجع إليه وقيل: إنه بكاء امرأةٍ ضل لها بعيرٌ. فقال هذا الشعر منكراً لبكائها ومستعظماً " [2].

وإذا كان الأمر كذلك فمن الأهمية بمكان بيان مناسبة الأبيات لأثرها في إيضاح المعنى وإلا " لكيف يتأتى فهم هذه الأبيات ـ وما مثلها ـ ما لم يكشف عن مناسبتها !!! أحسب أن هذه الأبيات بصورتها العامة دون تحديد قد تلتبس على بعض الأفهام ، ولعل هذا ما دعا "المرزوقي" إلى تهيئتها للعقول قبل أن يمضي إلى المعنى على النهج الذي يترسمه ويقفو أثره " [3].

مما يؤكد بدوره أهمية إيضاح الشراح للإشارات والتلميحات الخاصة بالأبيات في إزالة اللبس والغموض الذي قد يعتري معاني بعض الأبيات، ويحيق المتلقي في فهمها واستيعاب محتواها.

---

(١) المرصفي: أسرار العملة، ص ٦٥ .
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: ٢ / ٨٧٣ وما يليها.
(٣) فتحي محمد أبو عيسى: القضايا الأدبية والنقدية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة: ص ١٧٢.

ج- ايضاح كل رمز في البيت يحمل في طيّاته إضمارًا خفيًا أو تكثيفًا فكريًا [1]، كأن يقوم الشارح - في أثناء شرحه - بتوضيح فكر الشيعة مثلاً، أو بتوضيح فكرة فلسفية أو منطقية، أو بكل ما من شأنه أن يساعد في فهم المعنى الذي أراده الشاعر [2].

من ذلك التعليق على البكاء بعين واحدة في قول الصمة بن عبد الله القشيري: (الطويل)

بَكَـــتْ عَيْنُـــي اليُـــسْرَى فَلَمَّـــا زَجَرْتُهَـــا عَـــنِ الجَهْـــلِ بَعْـــدَ الحِلْـــمِ أَسْـــبَلَتَا مَعَـــا

إذ يوضح الشارح هذا الأمر بقوله: " بلغ من حزن متمم بن نويرة على أخيه مالك، أن بكاء بعينه العوراء، وأما البكاء بإحدى العينين فممتنع على الإنس، و الله أعلم بهم و بغيرهم من الخلق " [3]، وهذه فكرة منطقية حسب الشارح تحليله لبيت شاعر الحماسة؛ خدمة للمعنى وكشفا له.

ومن الأفكار العقلانية التي وظف فيها الشارح ثقافته في العقائد والفرق في توضيح المعنى، ما نجده في تعليق أبي العلاء المعري على قول قطري بن الفجاءة: (الكامل)

ثُـــمَّ انْـــصَرَفْتُ وَقَـــدْ أَصَـــبْتُ وَلَـــمْ أُصَـــبْ جَـــذَعَ البَـــصِيرَةِ قَـــارِحَ الإِقْـــدَامِ

نجد التبريزي يقول: " ومعنى البيت ما ذكره أبو العلاء المعري، وهو أنه يريد أنه مذ كان لم يزل شجاعا، وبإقدامه قارح لأنه قديم، ويعني بقوله "جذع البصيرة" أنه كان فيما سلف لا يرى رأي الخوارج، ثم تبصر في آخر أمره، فعلم أنهم على الحق فاتبعهم، فبصيرته جذعة: أي محدثة لم تطل عليها الأيام، وذلك أن هذا الرجل كان خارجيا سلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة " [4].

وقد يكون من ذلك وجود بعض الإشارات التي توحي بأن الشارح كان متعاطفًا مع كل البيت، مستنكرًا ما حدث لهم بأيدي الأمويين والعباسيين على السواء فربما " ما يتضمنه البيت من معنى أخلاقي عقائدي وجد صداه لدى الشارح " [5].

من مثل قول المرزوقي بعد شرح بيت الحصين بن الحمام: (الطويل)

ثُقَفْـــنَ هَانِئًـــا مِـــنْ أُنَـــاسٍ أَعِـــزَّةٍ غَلَبْنَـــا وَهُـــمْ كَـــانُوا أَعَـــقَّ وَأَظْلَمَـــا

" ويروى أن يزيد ابن معاوية - لا رحمه الله - تمثل بهذا البيت لما وضع بين يديه رأس الحسين ابن علي رضي الله عنهما " [6].

---

(١) د/مصطفى عليان. تيارات النقد الأدبي في الأندلس. ١٨٥.
(٢) د/السيد حمدان: المسائل البلاغية والنقدية في شروح المتنبي على شعر أبي العلاء: ص ٢١٩.
(٣) التبريزي. معاني أبيات الحماسة. ص ١٦٣، ١٦٤، المعلقة رقم (٤٦٠).
(٤) التبريزي. شرح ديوان الحماسة (١ / ١٣٢).
(٥) د/أحمد المزغني. شرح الشعر عند العرب، ص ٢١٥.
(٦) المرزوقي. شرح ديوان الحماسة: ٣٩٢/١.

د ـ الاهتمام البيّن بوحدة المعنى في الأبيات الشعرية موضوع التحليل، فقد قرن المحللون من النقاد البيت في حالة شرحه بما يتصل به من الشعر من قبل ومن بعد ، جلاءً للمعنى وإعرابًا عنه بدقة[1].

فتجد الشارح يقول – مثلا: هذا البيت تفسير ما قدمه، أو هذا تفسير قوله، أو تبين من البيت الثاني معنى البيت الأول، أو هذا كالبيان لما تقدم، والكشف عما أجمل ... إلخ .

وقد أكثر من هذا النهج المرزوقي في شرحه، وكان وسيلة من وسائل دفاعه عن كثير من أبيات الحماسة ضد ما يشوبها من أشكال التجني والالتباس.

من ذلك ـ مثلا ـ دفاعه عما قد يعتري بيت عروة بن الورد من شبهة تكرار معنى ما قبله: (الطويل)

قَلَّتْ لِقَوْمٍ فِي الكَنِيفِ تَرَوَّحُوا ... غَشِيَتْهُ بِنْتًا عَنْ قَتَامٍ وَإِنْ رُزِّحْ
تَعَالَوْا الجَفَلَى أَوْ تَبْتَغُوا بِنَفُوبِكُمْ ... إِلَى مُسْتَرَاحٍ مِنْ جِفَانٍ مُبَرَّحْ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أَوْ يُصِيبَ رَغِيبَةً ... وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ

بقوله: " قوله "ليبلغ" تفسير ما قدمه. وبشير بقوله "عذرا" إلى قطع الموت لأن المجتهد في طلب الشيء إذا حال أجله دون أمله فقد أعذر، إذ كان قد فعل ما عليه. وقوله "أو يصيب رغيبة" إشارة إلى نيل الغنى. والرغب: اتساع الشيء، ومنه بطنٌ رغيبٌ. وقوله "ومبلغ نفسٍ عذرها مثل منجح" أي من أعذر فيما يطلبه، أصابه أو فاته، فقد أنجح. وهذا الكلام وإن كان ظاهره وظاهر صدر البيت الأول أنه يتكرر به المعنى الذي قدمه فيه، فليس الأمر كذلك، لأنه ذكر في الأول إبلاغ النفس من الموت حداً يريحه، ولم يبين من فعل ذلك: هل أنجح أو لا. وفي الثاني بين أن المعذر في طلب الشيء كالمنجح، وأنه إذا استغرق وسعه في طلب ما يهم به ثم حال دونه حقلٌ فقد أعذر " [2].

وهو ما نجد صداه عند كثير من الشراح الآخرين الذين اعتمدوا هذه الطريقة في توضيح وتفسير الكثير من أبيات شعراء ديوان الحماسة، في إطار أدراكهم للوحدة المعنوية بين الأبيات، ويمكن مطالعة ذلك في هذا المثال التالي الذي شرح فيه التبريزي البيت الثاني من قول آخر (وهو إسحق بن خلف) وعلق عليه: (البسيط)

تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا ... وَالمَوْتُ أَكْرَمُ نُزَّالٍ عَلَى الحُرَمِ
أَخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أَوْ جَفَاءَ أَخٍ ... وَكُنْتُ أَبْقَى عَلَيْهَا مِنْ أَذَى الكَلِمِ

بقوله: "هذا تفسير قوله أهوى موتها شفقاً، يقول: أشفق من مغالظة عم لها، أو جفوة أخ تلحقها، والكلم جمع كلمة، ومعنى أذى الكلم: الأذى الذي يلحق من الكلم أي: ما كنت أسمعها كلمة تؤذيها، فضلا عن الغلظة والجفاء"[3].

وفي قول بعضهم: (البسيط)

لَقَدْ عَارٌ إِذَا ضَيْفٌ ثَوَى فَقَبِي ... مَا كَانَ عُذْرِي إِذَا أُعْطِيتُ مَجْهُودِي

---

(١) د.مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ص ١٨٦.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. (١ / ٤٦٥).
(٣) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ١٥١).

جَهْـــدُ النقيـــلُ إذا أعطـــاكَ نائِلَـــهُ ومُكْثِـــرٍ فـــي القِنَـــى مِـــئْنٍ فـــي الجُـــودِ

يقول المرزوقي: "وقد تبين من البيت الثاني معنى البيت الأول، واعتداره من التليل للذي يعطيه إذا ساف صيف"[1].

والمرزوقي كذلك شرح بيتًا لقبيصة بن جابر: (الوافر)

تَنَـــا الجَـــبَلانِ مِـــن أجَـــإٍ وسَـــلْمَى وشَـــرْقِيَاهُمَا غَيْـــرَ المُتَخَـــالِ

وتِيْهَـــاءُ التِّـــي مِـــنْ عَهْـــدِ عَـــادٍ جَنِيَّاهَـــا بِـــأَطْرَافِ العَـــوَالِي

بقوله: "هذا كالبيان لما تقدم، والكشف عما أجمل، لأنه أتبع ما وصف من أخلاقهم وعزهم، متحصن بلادهم وتمنع حيالهم، فقال: لنا جبلا طيئ أجأ وسلمى، ونواحي الشرق منهما، دعوى صحيحةٌ لا يضعفها انتحالٌ، ولا يوهنها كذابٌ" [2].

هـ - توضيح المعنى بالإشارة إلى ما يرتبط به من أمثال العرب وعاداتهم ومذهبهم وأساطيرهم [3]، فالشارح في سبيل كشف المعنى وفسره قد "يلجأ لخطة مكاشفته للبيت الشعري أو الأبيات إلى الاستشهاد بما هو خارج عن النص .. يلوذ بشواهد متباينة المشارب تجسم بجلاء تنوع الأطر المرجعية التي تسير تعامله مع الشعر" [4]، وغير ذلك من المرجعيات الثقافية والمعرفية، والتي تحتاج من الشارح إضافة إلى ضرورة التسلح بمتين المعارف والاطلاع، أن يمتاز بحس أدبي مرهف، وأسلوب فني راق، يصل إلى الذهن والقلب والإحساس معا. وقد تميّز في هذا الجانب كلّ من النمري والمرزوقي على وجه الخصوص.

فمما يتصل بالأمثال، ما علّق به التبريزي على قول الشماخ يرثي عمر بن الخطاب، وقال أبو رياش الذي عدي أنه لمزرد لخيه وقال أبو محمد الأعرابي هو لجزء بن ضرار لخيه: (الطويل)

فَمَـــنْ يَـــسْعَ أَوْ يَرْكَـــبْ جَنَـــاحَيْ نَعَامَـــةٍ لِيُـــدْرِكَ مَـــا قَـــدَّمْتَ بِـــالأَمْسِ يُـــسْبَقِ

"أي من يكلف لحاقك كان مسبوقاً وضرب جناحي نعامة مثلاً لأنه يضرب به المثل في خفة العدو فيقولون أعدى من الظليم" [5].

ومما يتصل بعادات العرب ما وضح به النمري - وغيره - قول ابن أخت تأبط شرًا: (المديد)

خَلَّـــتِ الخَمْـــرُ وكَانَـــتْ خِزَانَـــا وبِـــأَيِّ مَـــا أَلَمْـــتْ تَحِـــلُّ

"كانت العرب إذا قتل لها قتيل ندرت أن لا تشرب خمرًا ، ولا تمس طيبا، ولا تغسل رأسًا، ولا تنكح امرأة، حتى تدرك الثأر. يقول: قد أدركت ثأري، فحلت لي الخمر بعد أن كنت حرمتها على نفسي. وهذا كقول امرئ القيس: (السريع)

خَلَّـــتْ لِـــيَ الخَمْـــرُ وكُنْـــتُ امْـــرَأً عَـــنْ شُـــرْبِهَا فِـــي شُـــغْلٍ شَـــاغِلِ " [6]

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. حماسية (٧٩٤)، (٢ / ١٧٦٢).
(٢) نفسه: (١ / ٧٩٠).
(٣) د/السيد حمدان: القضايا الخلافية والنقدية في شروح التنساء على شعر أبي العلاء المعري، ص ٣٢٢.
(٤) د/أحمد الوردي: شرح الشعر عند العرب، ص ١٠٦.
(٥) التبريزي. شرح ديوان الحماسة (٣ / ٦٥).
(٦) النمري. معاني أبيات الحماسة: الحماسية رقم (٢٧٦)، ص ١٢٢ / ١٢٣، وانظر: نفسه. الحماسية رقم (٣٤٨)، ص ١٣٨.

وقول عارق الطائي: (الطويل)

وقَـــدْ يَتْـــرُكُ الفَـــذَرَ القَتَـــى وطِفَاطَـــهُ إذا هُـــوَ أمْـــسَى خَلْيَـــةً مِـــنْ نَمِ القَـــصْدِ

" كانت العرب إذا أجدبت وقل زادها، عمدت إلى البعير فنحرته، واستخرجت من دمه بقدر الحاجة، ثم أمته إلى النار ليجمد وينضج فتأكله، إلى أن حرمه الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم. وقال الأعشى وقد لحق الإسلام: (الطويل) فَلا تَأْخُذَنْ مِنهَا جَبِيذًا بِتَقْصِدًا"(١).

ومما يتصل بمذاهب العرب التي تعكس صورة حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، أو أساليب خطابهم، أو استعمالاتهم اللغوية، أو تعبيراتهم وصورهم الشعرية، ما نجده في شرح قول آخر: (الطويل)

وإنَّـــا لَنَجْفُـــو الـــضَّيْفَ مِـــنْ غَيْـــرِ عُـــسْرَةٍ مَخَافَـــةُ أنْ يَـــسْطُو بِنَـــا فَيَقُـــودُ

وَنُـــثْنِي عَلَيْـــهِ القِدْـــرَ عِنْـــدَ مَجِيئِـــهِ وَنُبْـــدِي لَـــهُ الجُرْمَـــانَ ثُـــمَّ نَزِيـــدُ

" قال أبو العلاء: هذا البيت يروى لحاتم الطائي ويقال أنه أراد بالضيف الأسد وهذا لا يمتنع من مذاهب العرب لأنهم يسمون كل طارق ضيفاً حتى جعلوا الأسد كالضيف وكذلك اليم قال الشاعر: (الطويل)

تَـــضِيفُنِي وَهْنًـــا فَقُلْـــتُ أَسَـــابِقِي إِلَـــى الـــزَّادِ شَـــأْتٌ مِـــنْ يَـــذِي الأَصَـــابِعُ

فَلَـــمْ تَلْـــقَ لِلـــسُّغْدَى ضَـــئِيلًا بِقُفْـــزَةٍ مِـــنَ الأَرْضِ إِلَّا وَهْـــوَ غُرْثَـــانُ جَـــائِعُ

وقال المرقش: (الطويل)

ولَقَـــدْ أَضَـــأْنَا النَّـــارَ عِنْـــدَ ثِبَـــوَاتِنَا غَرَّتَـــا عَلَيْهَـــا أَطْلَـــسُ اللَّـــوْنِ بَـــاتِسُ

نَبَـــذْتُ إِلَيْـــهِ فَلْـــذَةً مِـــنْ شِـــوَاتِنَا خَيَـــاءَ وَمَـــا فَحْـــشِي عَلَـــى مَـــنْ أُجَـــالِسُ

فَـــآضَ بِهَـــا جَـــذْلَانَ يَـــنْفُضُ رَأْسَـــهُ كَمَـــا آبَ بِالنَّهْـــبِ الغَمُـــرُ المُخَرِّبُ

وقال الفرزدق: (الطويل)

فَبِـــتُّ أَقُـــدُّ الـــزَّادَ بَيْنِـــي وَبَيْنَـــهُ عَلَـــى ضَـــوْءِ نَـــارٍ نَـــارِ نَـــزْرٍ وَدُخَّـــانِ

وسموا المال ضيفاً لأنه يجيء ويذهب ومن ذلك قول القائل: (الطويل)

وَإِنَّـــا لَنَقْـــرِي الـــضَّيْفَ إِنْ جَـــاءَ طَارِقًـــا مِـــنَ الـــضَّيْفِ إِنْ كَـــانَ الـــصَّحِيحَ المُـــسَلَّمَا (٢)

إن وضع الشارح الإصبع على طرائق العرب اللغوية وأساليب خطابهم خطوة مهمة لاستشراف عوالم الدلالة وأفق المعاني عامة، وفي أشعار ديوان الحماسة خاصة، كما اتضح من المثال السابق ويتضح أكثر من المثال التالي الذي شرح فيه المرزوقي قول المرار النقصي: (الطويل)

فَيَـــا مَوْقِـــدَيْ نَـــارِي لِأَفْعَاهَـــا لَيْلَهَـــا تُـــضِيءُ لِـــسَارِي آخِـــرَ اللَّيْـــلِ مُقْتَـــرِ

" وإنما قال فيا موقدي ناري على عادتهم في جعل مزاولي الأمور اثنين اثنين. على ذلك قول الآخر:

تَرَى جَانِبَيْهِ بُزْغَدَانِ " (٣).

---

(١) التبريزي: معاني أبيات الحماسة: الحماسية رقم (٦٢٢)، ص ١٩٨.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٤ / ١٧٠ ، ١٧١).
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٤ / ١٧٢٣).

وقول المثلم بن رياح: (الطويل)

مِـــنْ مُبْلِـــغٌ عَنِّـــي سَـــرَاتَنَا رِسَـــالَةً ... وَشِـــجْنَةُ أَنْ قُومِـــي خُـــذِي الحَـــقَّ أَوْ ذَعِـــي

بَنِـــي أَكْلُبٍ جَنَّبْـــتُمُونِي وَضَـــيْعَةً ... وَأَغْـــضَبَنِي إِنْ لَـــمْ تُغَـــطِّ بِـــالحَقِّ أَشْـــجَعَا

" يغلب في نفسي أن الشاعر قال وأغضب إن لم تعطيا الحق أشجعا، لأنه بنى الرسالة على أن تكون متوجهةً نحو اثنين: سراة وشجنة. ومخاطبته من بعد أحدهما في قوله ساكفيك، على عادتهم في الافتنان والتصرف، لا يمنع من الرجوع إلى ما بني كلامه عليه من ذكر الاثنين. وهذا ظاهرٌ لمن تأمله " [1].

وهذا الفنن والتصرف في فنون القول الذي يقصده الشارح هو الانتقال بين الضمائر، أو ما يعرف بلاغيًا بـ "الالتفات"، مثل تعليقه على قول عبدالله بن الحشرج: (الوافر)

ألا كَتَبَـــتْ تُؤَمِّـــلُـــكَ أُمُّ سَـــلْـــمٍ ... وَخَيْـــرُ اللَّـــوْمِ أَنْـــتَـــى لِلْـــمَـــذَادِ

وَمَـــا بِـــذُلِّي بَـــلَاؤِي دُونَ عِرْضِـــي ... بِإِمْـــرَاتٍ، أَمِـــيمٍ، وَلَا فَـــمَـــادِ

يقول "خاطب نفسه في البيت الأول، ثم نقل الخطاب إلى الإخبار، على عادتهم في كلامهم" [2].

أما عن توضيح المعنى بالإشارة إلى ما يتصل به من أساطير العرب وأباطيلهم فهو كثير، نكتفي منه بشرح السكري - وغيره - لقول قرادة بن خويلة: (الطويل)

أَلَا لَيْـــتَ شِـــعْرِي هَـــلْ يَلُـــومَنْ مُطَـــارِقٌ ... إِذَا جَـــاوَبَ الهَـــامُ المُـــصَيْخُ هَـــامَتِي

" "مطارق"، ابن أخيه، و العرب تزعم أن الرجل إذا قتل خرج من رأسه طائر يدعى "الهامة"، و"الصدى"، فلا يزال يصيح. اسقوني، اسقوني، حتى يدرك بثأره. وهذا من أباطيل العرب. فيقول: ما يقول ابن أخي إذا قتلت وقرني ؟ أيطلب بثأري ؟ يحضضه على طلب ثاره" [3].

وشرح أبي هلال العسكري لقول الأخر: (الطويل)

فَـــلَا تَظْمَـــئَنَّ الخَـــزْيَ فِـــي الهَـــامِ هَـــامَتِي ... وَلَا تَرْمِيَـــا بِالنَّبْـــلِ وَيْحَكُمَـــا بَعْـــدِي !!

" وكانت العرب تزعم أنه يخلق من دماغ الميت طائر، يقال له: (الهامة)، يقف على الأحمان، ويعرف الميت" [4].

وهناك الكثير من الشواهد والأمثلة - يزخر بها ديوان الحماسة - يضيق البحث عن أن يتسع لذكرها جميعا، والتي تتضافر فيما بينها لتشكل جانبا مهما من جوانب التفسير، ومرجعية مهمة من مرجعيات التأويل التي كثيرا ما يعول عليها الشارح في تفسيره المعنى الشعري.

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٣٨٢).
(٢) نفسه: حماسية (٧٧٣)، (٢ / ١٧٣٧ - ١٧٣٨).
(٣) التبريزي: معاني أبيات الحماسة: المثلم بن (٣٥٢)، ص ١٤٢.
(٤) أبو هلال العسكري: رسالة في مخطوطة موضوع من الحماسة: ص ١٧٢، ١٧٣.

و- توضيح المعنى بالإشارة إلى بعض اللمحات التفسيرية لأصحاب المعاني[1]، كما يتضح من شرح بيت آخر: (بعض بني تيم الله) (الكامل)

ونُطاعِنُ الأبطالَ عن أبنائِنا ... وعلى بَصائرِنا وإن لم نُبْصِرِ

" معنى البيت: إنا ندافع عن حرمنا وحريمنا، وعلى ما يعترض في الوقت، نفعل ذلك وإن لم نبصر عاقبة الأمر، ولم نتتبعها بالفكر فيها، وتأمل نتائجها، لمعلم موادها. وهذا شأن القتال فيما يمشونه من أحكام الحرب وينفذونه، ويفتلونه من أسباب الحذاب والنزاع ويبرمونه ... وسمعت بعض أصحاب المعاني يقول: المعنى إنا نقاتل الأبطال حرباً على عادة الناس عند نظرهم لدنياهم ودينهم، في النَّبَ عن الحرم والعشيرة والشرف، وعلى الأديان والاعتقادات والبصائر، وإن لم نبصر وجهاً واحداً من هذه الوجوه نقاتل أيضاً، لأن همنا القتل والقتال " [2].

وما رواه النمري في قول عبد الله عظمة الحسني يرثي بسطامًا: (الوافر)

لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا والصَّفَايَا ... وحُكْمُكَ والنَّشِيطَةُ والفُضُولُ

" حكى ابن السكيت عن الأصمعي في المعاني أنه قال : "المرباع"، ربع الغنيمة، و"الصفايا" ، جمع "صفي"، وهو أن يصطفي الرئيس لنفسه شيئًا دون أصحابه، مثل الفرس، وما لا يستقيم أن يقسم على الجيش. و"الفضول"، ما فضل من الغنيمة، مثل بعير أو بعيرين أو فرس، والجيش كثير، فلا يدري كيف يقسم ذلك عليهم " [3].

ثالثًا: تعمق المعنى:

شغل هذا الموضوع حيزا كبيرا في شروح ديوان الحماسة، بحيث تمثلن تلك الشروح بعشرات الأمثلة التي انتبه فيها الشراح إلى احتمالات المعنى في البيت الواحد في سبيل تعمق المعنى و إبرازه. إن عمل الشارح لا يقتصر - عبر هذا المسلك - على نسخ الصورة ومحاكاتها، بل يتجاوز ذلك إلى تفكيكها، و من ثم تحليلها، وصولا إلى المعنى المتخفي وراء حجب المجاز، وانطلاقا من ذلك نجد أن "الراوي / الشارح يحلل الصورة فيردها إلى ضربين من المواضعة الأولية والطارئة رصدا لمدى العدول بغية إزاحة الغطاء عن المعنى. و يبدو الراوي في ذلك أحد شارحين: شارح يحلل بدقة متناهية العلاقة بين المواضعتين فيبدو المعنى شفيفا بتراءى، وشارح يتجاوز تحليل تلك العلاقة إلى رصد وجه الشبه كشفا للمعنى بعد أن لاح لُغْزًا غير شفيف. وفي الحالتين يفتني الشرح بضروب القراءة فتنبسط المعاني وتتسع" [4].

---

(١) د/السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح التنصاء على شعر أبي العلاء المعري: ص ٣٢٥.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة حماسية (١٩)، (١ / ١٣٤ ، ١٣٥).
(٣) النمري: معاني أبيات الحماسة: الحماسية رقم (٣٥٦)، ص ٦٤٦.
(٤) د/أحمد الوهراني: شرح الشعر عند العرب: ص ٨٨.

١- وقد سلك الشراح سبلا مختلفة من الاحتمالات والتأويلات في طروقهم لتحديد المعنى العميق وكشفه. منها [١]:

أ- ما كان فيه التأويل معقدًا قريبًا مجاوزًا لظاهر العبارة إلى الفحوى والقصد مباشرة، ولهذا المنحى طابع تأويلي قريب المواضعة، يبدو فيه المعنى - كما سبق أن ذكرنا - شفيفا يتراءى. وهذا الجانب تمتز به النمري بخاصة. ويمكن التوقف عند شرحه قول الأقرع بن معاذ، يصف إبلا: (البسيط)

تُسْلِفُ الجَارَ شُرْبًا وَهْيَ خَائِفَةٌ ... وَلا يَبِيتُ عَلَى أَعْنَاقِهَا قَسَمُ

" "الشرب": الماء بعينه، ويرد به ها هنا اللبن. و"الخائف": العطشان الذي يحوم حول الماء. يقول: هذه الإبل تروي الجار وهي عطاش، تسلفه الري قبل ريها. وقوله: و"لا يبيت على أعناقها قسم"، أي لا يقسم عليها أن لا تنحر. و"القسم" اليسير. يقول: نحن نسقي لبنها وننحرها ولا يمنعنا هذا عن هذا " [٢].

فهو يغوص على القصد: فـ "الشرب" يعني "الماء بعينه"، لكن الشاعر استعار ذلك للدلالة على "اللبن" ليتسق مع ما رمى إليه الشاعر من قصد، فطن إليه الشارح وأوله تأويلا قريب المأخذ، سهل الإدراك، يتناسب مع معنى البيت "نحن نسقي لبنها وننحرها ولا يمنعنا هذا عن هذا".

بسما كان فيه التأويل معقدًا، وفيه استقصاء لوجوه المعنى المحتملة. ولكن من غير ترجيح ولا تفضيل.

فقد يحتمل البيت الواحد معنيين أو ثلاثة أو أكثر، أو قد يكون البيت في مستواه السطحي غير مستواه العميق. فمما يحتمل معنيين قول محمد بن عبد الله الأزدي: (الطويل)

لا أَنْفَعُ ابْنَ العَمِّ بِغَيْبِي عَلَى شَنَفٍ ... وَإِنْ يَلْقَنِي فِي أَذْهَ الجَنَادِغُ

"الشنف: حرف الشيء. ويمشي في موضع الحال. والبيت يحتمل وجهين. أحدهما أن يكون المعنى: إذا أشفى ابن عمي على بلاءٍ وشرٍ يخاف عليه منه، ويخشى عطبه فيه، فإني لا أدفع في صدره تحاملاً عليه ليقتحمه، ولا أزج به فيه لأغرقه. ويجوز أن يريد: إذا انحرف عني مهلجراً لي ومشى على جانب من المواسة معي لا أنفرد، ولا أتهم استيحاشه بما أثير من كوامن غيظه، وإن بلغني الدواهي عنه، وقاسيت الشدائد من أجله. أي لا أنتهز الفرصة في مكاشفته وإن اتصل بالسوء تعرضه، ودام فيما يعن اعتراضه" [٣].

وقول رجل من بني عقيل: (الوافر)

فَغُضَّيْهِنَّ يَوْمَ الرَّوْعِ عَنْكُمْ ... وَإِنْ كَانَتْ مُثَلَّمَةَ النِّصَالِ

"قوله معنيين أي مصرفين. ويقال: عد الهم عنك، أي اصرفه. والبيت يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون المعنى: صرف السيوف عنكم إبقاء عليكم، وكراهية لاستئصالكم، وإن كانت نصالها قد تثلمت من كثرة ما تقارع بها الأعداء. ويجوز أن يكون المعنى: تصرفونها إن تثلمت بكم وفيكم، لأن القدرة تذهب الحفيظة، ولأن ما يجمعنا يدعو إلى البقاء، والأخذ فيكم بالحسنى" [٤].

---

(١) د/مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ١٨٨-١٩٨. بتصرف قليل حذفا للشواهد والتعليق عليها.
(٢) النمري: معاني أبيات الحماسة. الحماسية رقم (٧٧٤)، ص ٢٣٥.
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١٣٧)، (١ / ٤٠١).
(٤) نفسه: حماسية (٤٢)، (١ / ١٠٠).

ومما يحتمل ثلاثة معان قول أعرابي يخاطب امرأته: (أنيف بن قترة) (الطويل)

شَـــرِبْتُ دَمًـــا إنْ لَـــمْ أُزِعْـــكِ بِـــضَرَّةٍ بِعِيـــدَةِ مَهْـــوَى القُـــرْطِ طَيِّبَـــةِ النَّـــشْرِ

" قوله: "شربت دمًا"، قسم يحتمل ثلاثة وجوه: إحداهما: أن الدم حرام في الإسلام، فكأنه قال: أتيت حرامًا، "إن لم أرعك بضرة"، أي أزعك . والوجه الثاني: أن العرب كانت إذا انقطع رادها و اضطرت، فصدت البعير فأخرجت من دمه بمقدار الحلجة، فأنضته إلى النار و أكلته ... والوجه الثالث: أن يقول: أخذت الدية فشربت من ألبانها، فكأني قد شربت دمًا " [1].

ومما يحتمل أكثر من ثلاثة معان قول شاعر الحماسة: (موسى بن جابر) (الطويل)

فَمَـــا نَقَـــزَتْ جِنِّـــي ولا فُـــلَّ مِبْـــزَدِي ولا أَصْـــبَحَتْ طَيْـــرِي مِـــنَ الخَـــوْفِ وُقَّفَـــا

"وهذا يحتمل وجوها: يجوز أن يريد لم ينخزل لما أتيتم وأخبرتم أصحابي الذين هم كالحن، ولا فل لساني الذي هو كالمبرد، ولا ذعر جأشي فصار طيري واقعةً. ويكون الأول كقول الآخر: (الطويل)

عَلَيْنَ لِبَيَّانٌ لَجِنَّةُ عَبْقَرٍ

وتشبيه اللسان بالمبرد وحد السيف أكثر من أن يحتاج له إلى شاهد. وقد قيل في "نفرت جني" إنه مثل لفلتاته وبدراته، ويكون هذا كما وصف امرؤ القيس فرسه بالمرح وحدة القلب فقال: (الطويل)

به طائفٌ من جِنَّةٍ غَيْرِ مُخْبَبِ

وإن ذكره المبرد مثلٌ لصلاحه، وإن ذكره الطير مثلٌ لصيته وذكره الذاهب في الناس. ويجوز في هذا الوجه أن يريد به نكاءه ونشاطه وشهامته، فقد قيل في ضده: هو ساكن الطائر، وكأن على رءوسهم الطير. ويجوز أن يشير بالجن إلى ما يدعيه الشعراء من أن لكل واحد منهم تابعاً من الجن يستعين به فيما يجز به، ويجعل المراد بالمبرد في هذا الوجه اللسان لا غير. ويجوز أن يريد بالطير سراياه وطوائف خيله التي يطيرها للغارات والارتياد، وتجسس الأخبار وغيرها " [2].

ومما معناه في المستوى السطحي غير معناه في المستوى العميق، قول بشر بن المغيرة: (الطويل)

فَيَـــا غَـــمَّ مَهْـــلاً واتْئَبِـــي لِتَوْبَـــةٍ تُلِـــمُّ فَـــإِنَّ الـــدَّهْرَ جَـــمٌّ نَوَائِبُـــهْ

" قوله "مهلاً" معناه رفقاً ودع العجلة ... وفي هذا بعض التوعد والتنمر وإن كان ظاهره أنه يستعطف المهلب ويعرفه أن الدهر ذو غير وذو ألوان فلا يؤمن بوائقه؛ وأنه قد يحتاج إلى المستغنى عنه لحادثة تحدث. فيقول: ادخرني لنوبة تنزل، وهي المصيبة أو النكبة، ولا تطرحني اغتراراً بالأمن، فإن الدهر كثير النوائب، وشيك التحول" [3].

---

(١) المرزوقي: معاني أبيات الحماسة، الحماسية رقم (٨٧٢)، ص ٢٥١، ٢٥٢.
(٢) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، حماسية (١٢٨)، (١ / ٣٧٤).
(٣) نفسه، حماسية (٧٣)، (١ / ٢٦١).

وإذا كان البيت يحتمل أكثر من معنى، فإن الشارح يدير معانيه على احتمالاتها المختلفة، على مختلف الروايات، كما في شرح قول حسيل سجيح: (الطويل)

فَمَا زِلْتُ حَتَّى جَنَّبِي الْنِّيلُ عَنْهُمُ أَطَرْتُ عَتَى فَارِسًا ثُمَّ فَارِسَا

"يقول: لم أزل بياض ذلك اليوم أدفع في جوانب مجالي وأطراف أرضي، الفارس بعد الفارس، إلى أن تغشاني الظلام فحال بيني وبينهم، وستر كلاً منا عن صاحبه ... ومن روى "أطرف فرساً وألحق فارساً" فالمعنى أسوق فرساً وأنودهم عني، وقد ألحق في الطرد الواحد بعد الواحد فاصيبه" (١).

ومن خلال ذلك يمكن ملاحظة أن الشارح " يستثمر معرفته اللغوية في إدراك الفروق الدقيقة التي تكون عليها الكلمات في الأبيات، واللغة العربية كأية لغة أخرى تضيق ألفاظها أمام مجال الدلالات المتسع يوما بعد يوم ، فيمكن للفظ الواحد أن يحوي من المعاني ما قد يكون متعارضا في بعض الأحيان " (٢) . و قد تكون احتمالات المعنى لدى الشراح قائمة على " أساس من القرائن النحوية ، أو من التطورات الدلالية التي تطرأ على الألفاظ ، أو من قدرة بعض الصور على الإيحاء بمعان مختلفة " (٣) ، وكل هذا يساعد في كشف غموض المعنى ، وأمن اللبس والخلط .

ج- ما كان فيه التأويل متعدد الاحتمالات مرجّحًا دون تعليل، مثل ما نجده في تأويل قول بعض بني قيس بن ثعلبة: (البسيط)

بِيضٌ مَفَارِقُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُنَا نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا

"هذا البيت قد فسر على وجوه ، أنا ذاكر منها ما خطر ببالي: قيل: "بيض مفارقنا"، أي: لا دنس فيها، والعرب كلها سمر، فإذا وصفوا بالبياض، فإنما يراد به النقاء والطهارة وقيل: أراد أنا لسنا عبيدًا سودًا، وإذا كان المفرق أبيض، فكذلك الجسد. وهذا وجه لا يحسن إلا أن يكون معرضًا بقوم. فيقول: لسنا عبيدًا مثلكم. وقيل: بل يزعم أنهم قد شابوا وحنكتهم التجارب. وهذا وجه مشهور، ولكنه ضعيف هنا، فإن فيهم الأشيب و الأمرد، على أن له أن يغلب الشيب على المرد، إذا كانوا أكثر عددًا وأكبر عقولا ... وقيل: يريد بقوله: "بيض مفارقنا"، يريد من الطيب. والذي أختاره من هذه الوجوه، قول من قال: إنه لا دنس فيها" (٤).

د- ما كان فيه التأويل متعدد الاحتمالات مرجّحًا ومعلّلا، فبعد أن يشير الشارح معاني البيت على احتمالاتها المختلفة، يرجح منها ما يعتقد أنه أليق بسياق النص ومقامه. ومن الترجيح والاختيار من أوجه الاحتمالات المعنوية المختلفة التي يطمئن الشارح إلى أحدها مع ذكر سبب الترجيح، ما نجده في تأويل قول بشر بن أبي. (الطويل)

مُنِعْتَ بِمِثْلِ السَّبْقِ إِنْ كُنْتَ سَابِقًا وَتُقْتَلُ إِنْ زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمَانِ

"هذا يحتمل وجهين: أحدهما أنه جعل الخطاب لصاحب الفرس على المجاز والسعة، والمقصود الفرس، فيقول: تمنع من السبق إن سبقت - وهذا إشارة إلى ما كان منهم من لطم داحس. وقد قدم ذكره - فإن خفت تملك بك

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١٨٤)، (١ / ٥٧١).
(٢) د.أحمد صيرة: شرح المرزوقي، النظرية والإجراءات، ص ١٠٨.
(٣) نفسه: ص ١١٢.
(٤) التبريزي: معاني أبيات الحماسة: الحماسية رقم (١٤)، ص ٢٤، ٢٥، ٢٦.

وبرزت ثائباً أتي عليك. ويكون قوله "زلت بك القدمان" على ما فسرناه من قولهم تدحّ وزلول، إذا كان خفيفاً. فهذا وجه. والثاني أن يترك الخطاب على ظاهره وحده، فيكون المعنى: سيمنع منك المتّقى عليه من الخطر بسبق فرسك، فإن لم يثبت قدمك عند التقاضي به، وفي الدفاع عن نفسك فهما براد من ظلمك وبرام من هضمك قلت أيضاً. وهذا أقرب وأشبه بالقصة"[1].

وقد يستند الشراح في استشفاف إيحاءات المعنى، ومن ثم الميل إلى ترجيح أحدها إلى معطيات شعر الشاعر في مذهب العرب وما جرت به العادة، أو غرض الشاعر.

فمن الترجيح والتعليل بمذهب العرب وما جرت به العادة في أشعارهم، ما ذهب إليه التبريزي في قول الحرث بن وعلة الذهلي: (الكامل)

أنْ يَـــــأبِرُوا نَخْـــــــلاً بِغَيْـــــــرِهِم فَالـــــشَّرُّ نَخْجِقُـــــزُهُ وقَـــــدْ يَتَمَـــــرِي

"يقول إذا ظلمتهم فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فتشتفي أعداؤك منك فتكون كمن أصلح أمر غيره وهو كقولهم فلان يحطب في حبل غيره ... كأنه قال لا تأمن أبر قوم ظلمتهم نخلا لغيرهم يقال أبرت النخل وأبرته إذا لقحته، وقال بعضهم معناه إن ظلمتمونا تحولنا عنكم فلا يكون لكم بعدنا مقام فتتحولون أو يملككم العدو فيكون ما أبرنا نحن وأنتم ليم دوننا ودونكم، وقال أبو العلاء قد أختلف في معنى هذا البيت فقيل أراد أنه يفارقهم ويهبط هو وقومه أرضاً ذات نحل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبرونه كأنه يتهددهم بترحله عنهم لأن ذلك يؤديهم إلى النزل واستدلوا على هذا الوجه بقوله في القصيدة: (الكامل)

فَـــــوَضِ خِيَامَـــــكَ والْـــــتَمِسْ بَلَـــــدًا يَنْـــــأَى عَـــــنِ الْفَاشِـــــيكَ بِـــــالظُّلْمِ

وقيل بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي قد أبرت إذ كان عدوهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم، وقيل بل على أنه يسبي نساءهم فتوطأ فيكون ذلك كالأبار الذي هو تلقيح النخل، وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب مما تقدم لأنهم يكنون عن النخلة بالمرأة قال الشاعر يخاطب امرأة: (الوافر)

ألا يَـــا نَخْلَـــةً مِـــن ذَاتِ عِـــرْقٍ عَلَيْـــكِ وَرَحْمَـــةُ اللهِ الـــسَّلَامُ
مَنَـــعْتِ النَّـــأْمَ عَنِّـــي فَأَخْبِرُونِـــي هَنَـــا مِـــن ذَاكِ يَكْزِفُـــهُ الكِـــرَامُ
ولَـــوْلَا بَعْـــضُ مَـــا أَحْـــذَرُ اللهَ بَـــأْسِ إِذَا هُـــوَ لَـــمْ يُخَالِطْـــهُ الخِـــرَامُ "[2].

وقد يبنون توجيههم للتأويل وتفضيلهم للتعليل بمعيار المشهور المطروق من المعاني، كما في قول بعضهم: (الطويل)

أَكَلْـــتُ دَمًـــا إِنْ لَـــمْ أُرَعْـــكَ بِـــضَرَّةٍ بَعِيـــدَةِ مَهْـــوَى القُـــرْطِ طَيِّبَـــةِ النَّـــشْرِ

"أكلت دماً يجري مجرى اليمين وإن كان لفظه لفظ الدعاء وأكل الدم يسوغ عند الإشفاء على الهلكة والمعنى إن لم أفزعك بامرأة حسنة السالفة طيبة الرائحة فابتلاني الله بما يحل معه أكل الدم ويروى أن قائل هذين البيتين أعرابي وكان تزوج امرأة فلم يوافقها فقيل له أن حمى دمشق سريعة في موت النساء فحملها إلى دمشق وقال

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١٥٣)، (١/ ٤٥٣ ، ٤٥٤)، وانظر: التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٣/ ٢).
(٢) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (١/ ١٠٧ ، ١٠٨).

الأبيات وقال أبو العلاء يجوز أن يريد بقوله شربت دما أي إن لم أرعك بضربة فشربت دما لأن الدم لا يشرب ولا يمتنع أن يعني بقوله شربت دما أن يصيبه جدب وحاجة فيفتقر إلى شرب الدم كما كانت العرب في الجاهلية إذا أشتد عليهم الزمان فصدوا النوق وشربوا دماءها وخلطوها بغيرها فأكلوها ولا يبعدان يعني بالدم دم الحية لأنه عندهم كالسم قال الشاعر: (الطويل)

أسُـــودٌ وغُـــى لاقَـــت أُسُـــودَ خُفَيْـــةٍ ... تَـــسَاقَوْا علـــى ســـرد دمـــاءَ الأَســـاوِدِ

وأحد الوجوه أن يكون الغرض بقوله شربت دما أي قتل لي قتيل فأخذت الإبل في ديته فشربت ألبانها فكأني أشرب دم ذلك القتيل وهذا المعنى كثير في أشعار العرب قال الشاعر: (الطويل)

أبـــا العـــوف إن الإبـــل يَنْقَـــعُ رَمْـــلُها ... وكَـــان دمُ الثَّـــارِ الثُّمَيـــرِي أَنْقَعَـــا

تَبكـــي علـــى ريـــا إذا الخيـــلُ أضـــفَوا ... وتترك ريانَ القتيلِ المضيَّغا فاشْرَبْ بِدَمِ

إذا صَـــبَّ مـــا فـــي الوَطْـــبِ فـــاعلَمْ بأنَّـــهُ ... الـــــــــــشَّيخِ أوذَغـــــــــــا[1]

ومن الترجيح والتعليل بغرض الشاعر، ما أول به المرزوقي قول الراعي: (الطويل)

فَباتَـــتْ تَعُـــدُّ النَّـــجْمَ فِـــي مُـــسْتَحِيرَةٍ ... سَـــرِيعٍ بِأَيْـــدِي الآكِلِـــينَ جُمُودُهَـــا

"قوله فباتت تعد النجم إخبار عن ام حزرة بن أقرم. والمستحيرة: المتحيرة لامتلائها. أي في مرقة أو قدر قد تحيرت، فهي من صفائها وكثرة سمنها ترى فيها نجوم السماء. وقيل: شبه الراعي الفقاقيع التي كانت على رأسها من كثرة الدسم بالنجوم، ويجوز ان يكون أراد أن هذه القدر مرتفعة الشأن، عالية الأمر، فإنه كانت تعد النجوم فيها لما لمعت منها كأنها بلغت النجوم في علوها، لأنها لم تر مثلها قط. وهذا هو الوجه عندي، ليكون قد غض من أمره جراء على ما قاله وأنكره" [2].

وقد يستعين الشارح في ترجيحه للمعنى المختار على معطيات شعر الشاعر في معانيه، كما في قول حصين بن حمام المري: (الطويل)

وَلَمَّـــا رَأَيْتُـــا الـــمَرْءَ قَـــدْ حَيـــلَ دُونَـــهُ ... وَإِنْ كَـــانَ يَوْمـــاً ذَا كَوَاكِـــبَ مُظْلِمَـــا

"قوله ذا كواكب هو مأخوذ من قولهم أراد الكواكب نهاراً وهو شيء نطقوا به في الدهر الأول يريدون شدة الأمر وعظم الخطب قال طرفة: (الرمل)

إن تَزُلْـــــــــــهُ فَقَـــــــــــدْ تَعْتَـــــــــــسِفُ بِـــهْ ... وَتُرِيـــــــهِ الـــــــنَّجْمَ بِالظُّهْـــرِ بِـــــــالظُّهُرِ

وقال الفرزدق: (الطويل)

لَعَمْـــرِي لَقَـــدْ سَـــارَ ابْـــنَ يُوسُـــفَ مَـــسِيرَةً ... أَرَتْـــهُ نُجُـــومَ اللَّيْـــلِ مظْهِـــرةً نُجْـــرِي

وادعى بعض الناس أن ذلك أول ما قيل في يوم حليمة لأن الغبار ثار حتى حجب الشمس فظهرت الكواكب وهذا كذب ظاهر لأن الغبار إذا ستر الشمس فهو للنجم أستر ويجوز أن يكون ضربهم هذا المثل مأخوذاً من كسوف

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٤ / ١٧٦).
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٦٣٩)، (٢ / ١٥١٠ ، ١٥١١).

الشمس لأن الناس في كل زمان يعظمون ذلك وإذا كسفت وذهب ضوءها رزيت النحوم ويحتمل أن يكون أصل ذلك في الحرب وهو أشبه ما يقال لأن الأسنة تشبه بالنجوم قال الأفوه: (الرمل)

جَحْفَلٌ أَزْرَقُ فِيهِ قَتَرَةٌ ... وَنُجُومٌ تَتَلَظَّى وَشُرُرْ "[1].

كما أن الشارح قد يستند في ترجيحه إلى ملائمة المعنى للسياق الدلالي للبيت، ومدى معرفته بالسياق العام للنص الشعري، أو على ذوقه الفني وحسه النقدي.

فمن التأويل اعتمادا على المعرفة بالنص الشعري متكاملا لا إلى البيت بمفرده، ما ذهب إليه المرزوقي في قول عُقَيل بن عُلَّفَةَ: (الوافر)

وَنِعْمَتْ بِعَقِيلِ جَارَاتِ بَيْتِي ... أُغَيْلِمَةً رِجَالُكِ أَمْ شُهُودُ

"يحتمل وجهين: أحدهما أن يتبجح بتعفته في جاراته، وأنه لا يتطلب مفارقة التيمين دهن، بمرصداً للتمكن منهن، فيكون ذلك باعثاً للسؤال عن رجالهن، ليغتنم الخلوة بهن. والثاني أن يريد رفع الطمع عن جيرته، وقلة الفكر في تتبع أحوالهم، عند حضورهم وغيبتهم، إذ لم يكن همه في النيل منهم، ومشاركتهم فيما يتجدد لهم من خير، فعل العفف للمطامع الدنية. ويكون هذا كما قال الأخر: (الكامل)

وإذا أتَى مِن وَجْهِهِ بِطَرِيقِهِ ... لَم أطْلُعْ مِنْهَا وَرَاءَ خَبَايَاهُ

وهذا أوجه، لأن ذكر العفة قد جاء من بعد. (الوافر)

وَنِعْمَتْ بِصَابِرٍ عَنْ بَيْتِ جَارِي ... صَبُورِ الغَيْرِ غَضَّ الطَّرْفِ كُوزُ

هذا يشهد لما اخترناه في تفسير ما قبله، فيقول. وإذا دعتني الجار إلى بيته بكرمني ببره، ويشركني في خيره، لا أنصرف عنه والطمع فيه بعالمه، والاستغنام للحقير من ماله وطعامه على حده، انصراف الغير عن الماء وقد غمره الورود"[2].

وما جاء في شرح النمري لبيت آخر: (الطويل)

أَلا قَالَتِ الغَمْضَاءُ يَوْمَ لَقِيتُهَا ... فَبِرْتَ ، وَلَمْ تَجْزَعْ مِنَ الشَّيْبِ مَجْزَعَا

" قال أبو رياش رحمه الله: قالت له: كبرت، ولم تجزع الصمصاء من الشيب مجزعا، أي: لم تجزع حين الجزع، فإني شبت في وقت المشيب، وهذا عندي كقولك للرجل وقد رأى رأيا مخطئا: "لم تر رأيا"، وكما قال امرؤ القيس: (الطويل)

نَظَرْتَ فَلَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ مَنْظَرَا

وجائز أن تكون المرأة قالت له: كبرت، ولم تجزع أيها الرجل من الشيب، أي: ما أيسره عليك. والبيتان اللذان بإثره يقويان هذا" [3].

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ٢٠١).
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١٣٦)، (١ / ٤٠١ ، ٤٠٢).
(٣) النمري: معاني أبيات الحماسة: الحماسية رقم (١٠٦)، ص ٧٥.

وكما جاء أيضًا في شرح النمري لقول آخر: (مجنون ليلى) (الطويل)

فَيَـــارَبِّ إِنْ أَهْلَيْـــكَ وَلَـــمْ تُـــرْوِ هَـــامَتِي بِلَيْلَـــى، أَمُـــتْ لا قَبْـــرَ أَعْطَـــشُ مِـــنْ قَبْـــرِي

" "الهامة"، ها هنا هامة الرأس. يقول: إن مت ولم أرو من ليلى بما يروى به المحب من الحبيب، من قبلة أو نظرة أو عدة، لا يكن قبر أعطش من قبري، وجعل "العطش"، للقبر لحلوله فيه وهو عطشان، كما نقول: "هذا بيت كريم"، وأنت تريد صاحبه ... وقد فسر قوم هذا البيت تفسيرًا آخر لا وجه له ها هنا عندي. قالوا: "الهامة"، ذكر البوم، والعرب تزعم أن الرجل إذا قتل فلم يثأر به، خرج من رأسه طائر يسمى الهامة والصدى، و يزعم بعضهم أنه يتولد من الدماغ، فلا يزال يصيح. اسقوني، اسقوني = إلى أن يثأر ... وهذا التفسير لا يحتمل البيت، من أجل أن الشاعر لم يرد أن تقتل به ليلى كما قتلته، وباقي الأبيات يدل على ما ذكرته. والتفسير هو الأول لا غير" [1]، وهو ما يؤكد أن الشراح وضعوا في اعتبارهم خلال توجيههم للمعنى وحدة الأبيات وترابطها.

ومن ترجيح الشارح وتعليله اعتمادًا على دوقه الفني، وحسه النقديهما أوّل به النمري قول عبدة بن الطبب (الطويل)

عَلَيْـــكَ سَـــلامُ اللهِ قَـــيْسَ بْـــنَ عَاصِـــمٍ وَرَحْمَتُـــهُ مَـــا شَـــاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَـــا

"قال علي بن سليمان الأخفش في هذا البيت: أي عليك سلام الله ورحمته أبدًا، من أجل أن الله عز وجل أبدًا يشاء الرحمة، فجعل مشيئته الرحمة ظرفًا، وقال ثعلب قريبًا من ذلك. والذي عندي أن هذا كقولك: "أصابنا من العيث ما شاء الله أن يصيبنا، ورأينا من الخير ما شاء الله أن نرى"، وأنت تريد الكثرة والمبالغة: أي عليك سلام الله كثيرًا، وكذلك تقول للرجل: "أصبنا من المادة ما شئت"، ولن كان لا يشاء أن يصيب أحدًا، قال أوس بن حجر (الطويل)

وَلَـــمْ تُلْهِهَـــا بَيْـــضٌ الثُّغَـــالِيقُ أَنَّهَـــا كَمَـــا شِـــئْتَ مِـــنْ أَنْزُوفَـــةٍ وَنُخَـــرِّدِ

وقال ذو الرمة: "ما رأيت أفصح من أمة بني فلان، سألتها عن العيث فقالت عثا ما شئنا". فهذا مذهب العرب" [2].

وقد يبني الشراح تأويلهم للمعنى، وترجيحهم له على أساس صحة المعنى أو استحالته، أو مدى مراعاة الشاعر جانب الصنعة، فمن الأول قول عروة بن أذينة: (البسيط)

إِلَّـــا يَعِظَهُمَـــا لِلْبَـــيْنِ فُرْقَتُـــهُ وَلا يَبُـــلانِ طُـــولَ الـــدَّهْرِ مَـــا اجْتَمَعَـــا

"البين يقع على وجوه: أحدهما أن يكون مصدر بان بين وبينونة. والثاني أن يكون ظرفًا، تقول: بين القوم كذا، وهو لشيئين يتباين أحدهما عن الآخر فصاعدًا. والثالث أن يفيد معنى الوصل، على ذلك قوله تعالى: "لقد تقطع بينكم" ألا ترى معناه تقطع وصلكم، ولا يصح أن يكون المراد تقطع افتراقكم، لفساد المعنى. وعلى هذا قولهم. سعى فلان لإصلاح ذات البين من عشيرته، لأن المراد إصلاح الوصل لا الافتراق. والذي في البيت هو الثالث، لأن المعنى: هما متحابان قد ألف كل منهما صاحبه، والذي يهمهما و يعنيهما للوصل ما يخشى تعقبه له من الفرقة، فخوفها منها وفكرهما فيها، ولا يكتسبان ملالاً من اتصال طول الدهر" [3].

---

(١) النمري: معاني أبيات الحماسة. الحماسية رقم (٤٦٣)، ص ١٦٦، ١٦٧.
(٢) نفسه: الحماسية رقم (٢٦٦)، ص ١١٤، ١١٥.
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٤٩٩)، (٢ / ١٢٩٤).

ومن التقي قول برج بن مسهر الطائي: (الطويل)

وبِـــــنْيَ ألا يَجْمَـــــعِ الغـــــزْوُ بَيْنَنَـــــا وفـــي الغـــزْوِ مـــا يُلْقِـــي الغـــدُوُّ المُبَـــاغِضُ

"المعنى: وفي العز يحتاج إلى الصديق المخالص، إذ كان إنما يلقى فيه العدو المباغض. فهذا وجه. ويجوز أن يكون المعنى: وفي الغزو قد يلقى العدو المباغض فكيف الصديق المواد. والأول أشبه وأجود" (١).

يتضح لنا مما سبق أن الشراح خلال وقوفهم أمام صور المعنى المختلفة للبيت الشعري، يقدمون لها عدة احتمالات، لعل مراد الشاعر ومقصده، لكن لنتعقيد فيها يتمثل في قدرة الشاعر على إنتاج صورة ممثلة بالإيحاءات، مما يصعب الأمر على الشراح في توجيههم وترجيحهم للمعنى المقصود، وهو ما انعكس بدوره على تعليقاتهم وتعبيراتهم التي يصدرون بها تأويلهم لما ذهبوا إليه، فنراهم يقولون - كما مر بنا - احترازًا: (هذا عندي)، (يحتمل أن يقال ..)، (يجوز أن يكون ..) .. إلخ، وكلها تعليقات تدل على الظن والتخمين، وكذلك تعبر عن إدراك الشراح لمدى صعوبة تحديد مراد الشاعر ومقصده من المعنى، وما صنيعهم هذا إلا محاولات اجتهادية تقبل الصحة والخطأ.

٢- اتجاه الشراح نحو الطابع المنطقي التحليلي الذي يقوم على طريقة الجدل والمناظرة، من خلال إثارة السؤال كوسيلة إلى تأكيد المعنى الذي ذهبوا إليه، ومن ثم تكررت عباراتهم: (ولقائل أن يقول ... قالوا ..)...إلخ، ثم يسعى الشارح بعد ذلك إلى إيضاح المعنى وبيانه، مع الاستعانة بالشواهد الشعرية التي تلتقي في معناها مع معاني بعض الأبيات التي يشرحها، وقصده من ذلك تثبيت المعنى الذي ذهب إليه. ولعل "غايتهم الكبرى من إثارة السؤال والجواب عنه هي توجيه ما كان متناقض للمعنى في ظاهره، ورفع ما قد يحيط به من إبهام وغموض" (٢)، كما في بيت عمرو بن معدان: (الطويل)

فَمَـــا كَـــانَ فِـــي قَـــيْسٍ مِـــنَ ابْـــنِ خَفِيظَـــةٍ يُعَـــدُّ ولَكِـــنْ كُنْتَهُـــمْ نَهْـــبُ أَنْـــفُزَا

" "الأشقر"، ها هنا، أحد شيئين: رجل أو فرس، فإن عنى الفرس ضعف المعنى، والمراد فارسه، فاستغنى بذكر الفرس عن ذكر فارسه، كقولك أغارت الخيل. قال الشاعر: (دريد بن الصمة) (الطويل)

تَنَـــادَوْا فَقَـــالُوا : أَرِئْتِ الخَيْـــلَ فَارِسًـــا فَقُلْـــتُ : أَعِجْـــدٌ اللهِ ثُلْكُـــمُ الـــرَّدِي

ولقائل أن يقول: لم خص الأشقر دون غيره، على أن الأشقر أسرع الخيل، قالوا: "أشقرها سراعها، وكمتها صلابها"، ولكنه ضعيف على هذا أيضًا. وإن عنى رجلا أشقر، كان المعنى أبلغ وأسوغ، من أجل أنه يريد بالأشقر عبدا أو رجلا حضريا أو عجميا، وهؤلاء الثلاثة مذمومون عند العرب. والشقرة عيب عندهم، وهم يقولون: "إذا كنت غربيًا فلا تك أشقر"، ويسمون الفرس "الحمراء"، ويرون أن كل أشقر عبد، وقال عمرو بن الأهتم (البسيط)

والرُّومُ لا تَمْنَعُكَ البَيْضَاءُ لِلْغَرَبِ

يقول كلهم نهب من لا خير فيه، ولا قدر له ولا هيبة فيه" (٣).

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٢٠١)، (١ / ٦١٨).
(٢) د/السيد حمدان: قضايا البلاغية والنقدية في شروح التنماء على شعر أبي العلاء، ص ٢٣٥.
(٣) الجرجاني: معاني أبيات الحماسة: الحماسية رقم (٦٣٧)، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

رابعاً: نقد المعنى:

سار الشراح خلال تصديهم لمعاني أبيات الحماسة وفق مجموعة من القواعد والمعايير النقدية، التي كانت سبيلاً لهم في الكشف، ومن ثم الحكم على مدى إجادة الشاعر وإخفاقه في استخدامه لتلك المعاني.

وأهم هذه القواعد يمكن إدراجها فيما يلي:

أ- تأصيل المعاني [1]:

من خلال تحديد أصل المعنى، وما طرأ عليه من تغييرات، فعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، ويقال إنه للسموءل، ابن عاديا اليهودي في قوله: (الطويل)

وما مات مِنّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولا طُلَّ مِنّا حَيْثُ كان قَتِيلُ

" يقول: لم يمت رئيسٌ منا على فراشه، بل مات ميتةً كريمةً في الحرب تحت ظلال السيوف والرماح، ولا أبطل دم قتيلٍ منا حيث كان، وعلى يد من اتفق. وهذا غاية ما يتحمد به الفتاك وأبناء الحروب، حتى إن بعضهم اعتذر عمن مات على فراشه فقال: (الطويل)

بِخَيْرٍ مِنَ ابْنَاكَ لا بِذَمِّ أَبَا قُرْزُلٍ مُتَّ عَلَى مِنْوَالِ

وفي هذه الطريقة قوله: (الخفيف)

كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ عَلَيْنَا وعَلَى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

وقوله: مات حتف أنفه يقال إن أول من تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم. وتحقيقه: كان حتفه بأنفه، أي بالأنفاس التي خرجت من أنفه عند نزوع الروح، لا دفعةً واحدة. ويقال خص الأنف بذلك لأنه من جهته ينقضي الرمق. ويقال: طل دمه يطل طلاً، إذا أهدر " [2].

كما أبان الشراح عن المعاني المشهورة المطروقة وتنبهوا عليها، كما في قول آخر: (البسيط)

إِلاَّ يَكُنْ وَزَقِي غَضّاً أَرَاخ بِهِ لِلْمُعْتَفِينَ فَإِنِّي لَيِّنُ العُودِ

" ... الوزق المال من الإبل والوراق الرجل الكثير الوزق يقال رحت له أراح أي ارتحت وقيل الأريحي أفعلي من هذا وذكر الوزق كناية عن المال في كلامهم كثير قال زهير: (البسيط)

ولَسْتُ مَسْتَبِعٍ ذِي قُرْبَى ولا رَجِمٍ يَوْمًا ولا مُفْسِدٍ مِنْ خَابِطٍ وَزَقَا

لما استعار الوزق للمال وصله بالخابط تحسيناً لكلامه وكذلك هذا لما كنى عن معروفه بالوزق وصله بالعود وإذ الأن العود اهتز وعن الاهتزاز للخير يحصل الندى" [3].

---

(١) د/السيد حسان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح التنصاء على شعر أبي العلاء، ص ٢٣٧.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١٥)، (١ / ١١٧).
(٣) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٤ / ٦٨).

وقد يناقض شعراء الحماسة غيرهم من الشعراء في تداول المعاني؛ هذه المناقضة قد تكون بالمخالفة، أو التضاد، أو العكس، أو النقل، أو القلب، أو التفصيل ... إلخ .

لمن المخالفة قول آخر: (بلعاء بن قيس) (البسيط)

يَـــضْرَبَةٍ لـــم تَكُـــنْ مِنِّـــي مُخَالَـــسَةٌ ولا تَعَجُّلُهَـــــا جُبْنًـــــا ولا فَرَقًـــــا

" يقال تعجلت الشيء، أي تكلفته على عجلة. ويقال أيضا أعجلته واستعجلته وتعجلته بمعنى. والخلس: أخذ الشيء مختلةً، وقيل الاختلاس لرحى من الخلس. ويقال هو لك خلسةً، كما يقال نهزةً وفرصةً، يقول: شتيته سيفاً بأن ضربته ضربةً هكذا. فأما قوله لم تكن مني مخالسةً، فهو خلاف قول الآخر : (الفند الزماني) (الهزج)

وَلَـــــذْ أَخْـــــتَلِسُ الـــــضَّرْبَـ ـــــةَ لا يَـــــنْهَى لَهَـــا نَـــصْلِي

وقول الهذلي: (الطويل)

وَطَعْنَةِ خِلْسٍ قَدْ طَفَتْ مُرِشَّةٍ

لأن قصد الشاعر هاهنا إلى أنه تناول من خصمه ما تناول بنشاط وقوة قلب لا كما يفعله الجبان. وتم يتكر تمكنه من خصمه على شدة احترازٍ منه حتى تناول ما تناوله خلساً. وقد وصف الشجاع بالمخالس والخلس، وكذلك المصارع. ومن مدحه خصمه ثم ذكر غلبته له كان أبلغ في الافتخار به، فاعرف فرق ما بين الموضعين. وقوله: "ولا تعجلتها جبناً ولافرقاً" يؤكد ما ذكرناه. وانتصاب "جبناً" على أنه مفعول له، وهو الذي يسمى مصدراً لعلة. والمعنى: ولم أتكلف عجلتها لضعف قلبي ولا لخوفي من صاحبي. وضربة الجبان اعجل وأسرع " [1].

وقول الكروس بن زيد: (الطويل)

لَـــئِنْ أَزْخَـــتْ بِـــي مَنْجِـــلٌ عِنْـــدَ نَـــيْتَتِي لَقَـــدْ أَزْخَـــتْ بِـــي بَـــيْنَ أَيْـــدِي القَوَابِـــلِ

" يقول: إن كانت هذه القبيلة سرت بي عند كبرتي، واستكمال رأيي وتجربتي، فحق لها ذلك، فقد استبشرت بي عند ولادتي، وحين هنئت بقدمتي. والقوابل: جمع القابلة، وهي التي تقبل الولد عند الولادة. واللام من قوله لئن دخلت موطئةً للقسم، وجواب القسم المعنوي لقد فرحت. وهذا خلاف قول الآخر: (الطويل)

وَفَتْـــيَةٍ بِـــي قَـــوْمِي وَمَـــا إِنْ هَنَـــأْتُهُمْ وَأَعْـــيَدَتْ فِـــي قَـــوْمِي وَلَيْـــسُوا بِمَنْبَتِـــي"[2]

و قول آخر: (البسيط)

إِذَا سَـــرَى القَـــوْمُ لَـــمْ أُبْـــصِرْ طَـــرِيقَهُمُ إِنْ لَـــمْ يَكُـــنْ لَهُـــمُ ضَـــوْءٌ مِـــنَ القَمَـــرِ

قوله لم أبصر طريقهم يريد أنه لا حادة في بلادهم وهذا خلاف قوله: (زهير بن أبي سلمى) (البسيط)

قَـــدْ جَعَلَ المُبْتَغُـــونَ الخَيْـــرَ فِـــي هَـــرِمٍ وَالـــمُمْتَلُونَ إِلَـــى أَبْوَابِـــهِ طُرُقَـــا

(١) للمرزوقي: شرح ديوان الحماسة حماسية (٩)، (١ / ٦٠ ، ٦١).
(٢) نفسه حماسية (٢١٠)، (١ / ٢٣١).

كأنه عيرهم العجز في كلامه" (١).

ومن التضاد قول سعد بن ناشب بن مازن بن عمرو بن تميم: (الطويل)

وأُهْمِلُ عَنْ دَارِي وأُجْفَلُ هَذْهَا ... لِيَرْتَبِطِي مِنْ بَالِيَ الْمَلْمَةِ خَاجِبَا

الذهول. ترك الشيء متناسياً له ومتسليا عنه، ومنه اشتقاق ذهلي. يقول: إنا طلق المنزل دي حتى يصير دار الهوان لشتات عنه، وأجعل خرابه وقاية للنفس من العار البالي، والذم اللاحق. وهذا قريبٌ من قوله: (مجزوء الكامل)

وإذا نَهابكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ

وهو ضد المعنى الذي يقصدونه بالثبات فيه والصبر عليه، من الإقامة في دار الحفاظ والافتخار به. لأن الانتقال ثم هو الجالب للعار، كما أن الإقامة هنا هو الجالب. فمن ذلك قوله: (الحاذرة) (الكامل)

وتُقِيمُ فِي دارِ الجَفَاظِ يَزُورُنَا ... زَمِنًا وتَظْعَنُ عَنْ غَزِيرَتِنَا لِلأَنْزَعِ

ومنه قوله: (سلامة بن جندل) (البسيط)

يَقُولُ مَنْ غَبَّ عَنْهَا أَنَّنِي لَمَزَتْهَا ... وإنْ تَعَادَى بِهَا نَفْسِي فَنَفْسِيَ مَخْلُوبُ

وفي ضده قوله: (عبد قيس بن خفاف) (الكامل)

دَارُ الهَوَانِ لِمَنْ رَآهَا دَارُهُ ... أَفْرَجْتُ عَنْهَا كَمْ لَمْ يَزْحَلِ

وقول الآخر: (سعد بن ناشب) (الطويل)

وأَنَّا بِمُخْتَلِّينَ دَارٍ فَسَيْبَعَةٍ ... مَخَافَةَ مَوْتٍ إِنْ بِنَا ثَبَتَ الدَّارُ " (٢).

و قول أبو خراش يرثي أخاه ، و يذكر نجاة ابنه خراش: (الطويل)

فَلَا، إِنَّهَا نَفْسُ الكَرِيمِ وَإِنَّمَا ... نُوَكِّلُ بِالأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي

" قوله . " وإنما نوكل بالأدنى " ، أي نحن موكلون بالحزن على من أصبنا قبله ، وهذا ضد قول أخي ذي الرمة: (الطويل)

فَلَمْ تَسْبِنِي أُولَى المُصِيبَاتِ بَعْدَهُ" (٣).

وقول بشر بن أبي جذيمة: (الطويل)

لَقَدْ مَنَّتْ بِفَعْدَائِكُمْ آلِ جَنْدَلٍ ... وَأَحْسَابِكُمْ فِي الحَيِّ غَيْرُ مَبَانِ

" "القعدان"، جمع "قعود"، و هو الفصيل. يقول: هي سمان من أجل أنكم تؤثرونها باللبن على من يطرقكم من جار وضيف، وعلى أنفسكم أيضا، فأحسابكم هزلى لذلك، والحسب لا يوصف بالسمن والهزال، إلا على الاتساع. وهذا ضد قول الآخر: (الوافر)

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٤ / ١٧٣).
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١٠)، (١ / ٦٨ ، ٦٩).
(٣) الشنتمري: معاني أبيات الحماسة: حماسية رقم (٢٦٥)، ص ١١١، ١١٢.

وَمَـــا ذَنْـــبُ قَلْـــبِي مِـــنْ غَرِيـــبٍ فُـــؤَادُهُ ... جَبَـــانُ الكَلْـــبِ مَهْـــزُولُ الفَـــصِيلِ

يقول: كلبي جبان لا ينبح ضيفاً، و فصيلي مهزول، لأني أوثر ضيفي عليه باللبن، و يروى: "سمين الكلب"، يقول أنحر أم الفصيل فيأكل الكلب أمها فيسمن" (١).

ومن العكس قول مسجاح بن سباع: (الوافر)

لَقَـــدْ طَوَّفْـــتُ فِـــي الآفَـــاقِ حَتَّـــى ... بَلِيـــتُ وَقَـــدْ أَتَـــى لِـــي لَـــوْ أَبِيـــدُ
وَأَفْنَـــانِي وَلا يُفْنَـــى ثَهَـــارٌ ... وَلَيْـــلٌ كُلَّمَـــا يَمْـــضِي يَعُـــودُ
وَشَـــهْرٌ مُـــسْتَهِلٌّ بَعْـــدَ شَـــهْرٍ ... وَحَـــوْلٌ بَعْـــدَهُ حَـــوْلٌ جَدِيـــدُ
وَمَفْقُـــودٌ عَزِيـــزُ الفَقْـــدِ تَـــأْتِي ... مَنِيَّتُـــهُ وَتَـــأْمُولٌ وَلِيـــدُ

"إذا تأمل الناظر ما اقتصه هذا الشاعر في هذه الأبيات على نفسها، من امتحانه بالكبرة والسن، وتراجع القوة بمأخذ الدهر، ومع التجوال في البلدان، ومقاساة الشقاء في الحل والترحال، والتنقل في الأحوال، ثم مرور الأيام وكرورها بما لا يسر عليه، إلى أن رفع الطمع عما كان تجمعه يده ونفض اليد مما كان يشده قبضه، ثم العصاب في الكامل البارح، وتعليق الرجاء بالطفل الدارج وحد عيشه على العكس مما وصفه امرؤ القيس في قوله: (الطويل)

أَلا أَنْعِـــمْ صَـــبَاحًا أَيُّهَـــا الطَّلَـــلُ البَـــالِي ... وَهَـــلْ يَـــنْعِمَنْ مَـــنْ كَـــانَ فِـــي العُـــصُرِ الخَـــالِي
وَهَـــلْ يَـــنْعِمَنْ مَـــنْ كَـــانَ أَقْـــرَبَ عَهْـــدِهِ ... ثَلاثِـــينَ شَـــهْرًا أَوْ ثَلاثَـــةَ أَحْـــوَالِ
وَهَـــلْ يَـــنْعِمَنْ إِلا خَلِـــيٌّ مُخَلَّـــدٌ ... قَلِيـــلُ الهُمُـــومِ مَـــا يَبِيـــتُ بِأَوْجَـــالِ

فتأملها فإنها عجيبة" (٢).

ومن القلب قول آخر: (جثامة بن قيس) (الوافر)

إِذَا لاقَيْـــتَ قَـــوْمِي فَاسْـــأَلِيهِمْ ... فَكُفِـــيَ قَوْمَنَـــا بِـــصَاحِبِهِمْ خَبِيـــرَا

"يتبجح قائله عند المرأة التي خاطبها، بسهولة جانبه، وترك المناقشة في استخراج حقوقه، ومسامحة نفسه بما يملكه، فيقول: إذا رأيت قومي فارجعي إليهم سائلةً عني، ومستخبرةً حالي ومعتمدةً على ما تسمعينه من قصتي وأمري، فكفى بقومي عالماً بي وبأخلاقي. وقوله "كفى قوماً بصاحبهم" مقلوب وكان الواجب أن يقول: كفى بقومي خبيراً بصاحبهم، ويعني بصاحبهم نفسه" (٣).

ومن الثقل قول بعض شعراء بلعنبر في وصف قومه: (أربد بن أنوف) (البسيط)

يَكْبُـــونَ نِيـــرَانَهُمْ حَتَّـــى إِذَا خَمَـــدَتْ ... شَـــبُّوا لِمَوْقِـــدِ نَـــارِ الخَـــزْيِ نِيرَانَـــا

"وهذا المعنى هو مثل ما افتخر به غيره في صفات نفسه فقال: (المتقارب)

أَبِيـــرُ مِـــنَ الـــشَّرِّ فِـــي رِفْـــوِهِ ... فَكَيْـــفَ الفِـــرَارُ إِذَا مَـــا اكْتَـــرَبْتُ

---

(١) الشنتمري: معاني أبيات الحماسة: حماسية رقم (١٠٨)، ص ١٩٣.
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (١ / ١٠٠٩ ، ١٠١٠).
(٣) نفسه: حماسية (٧١٤)، (٢ / ١٦٣١).

بل الذي ذكره العتبري أزيد، لأنه وصفهم بالاحتمال والصبر ما أمكن، فإذا احتاجوا زادوا على كل هالع. ألا ترى أنه قال:

شَبُّوا لِمَوْقِدِ نارِ الحَرْبِ نيرانَا" (١).

أما ما فصله شعراء الحماسة مما نجده عند غيرهم مجملاً، فيمكن أن نقف عليه في قول آخر: (الطويل)

وإنِّـــي لأَسْـــتَحْيي رَفِيقِـــي أَن يَـــرَى ... مَكَـــانَ يَـــدِي مِـــن جَانِـــبِ الـــزَّادِ أَقْزَعَـــا
وإنَّـــكَ مَهْمَـــا تُغْـــطِ بَطْنَـــكَ سَـــؤْلَهُ ... وَفَرْجَـــكَ نَـــالا مُنْتَهَـــى الـــذَّمِّ أَجْمَعَـــا

"وصف حسن أدبه في مواكلة رفيقه ولفه، وأنه لا يستأثر بما يعجب من الزاد، ولا تظهر منه نهمة وحرص، بل يستحي من أن يرى ما يلي يده من الزاد خالي المكان. وليس لأحد أن يقول إن إنقباضه يؤدي إلى انقباض أكيله، وذلك مذموم، وإنما المحمود أن ينبسط في الأكل ويبسط من أكيله وذلك أنه قد بين الغرض في البيت الذي بعده، لأنه قال:

وإنَّـــكَ مَهْمَـــا تُغْـــطِ بَطْنَـــكَ سَـــؤْلَهُ ... وَفَرْجَـــكَ نَـــالا مُنْتَهَـــى الـــذَّمِّ ...

فبين أن إبقاءه جانبه من الزاد مشغولاً ليس مع حاجة إليه، ولا عن إمساك يؤدي إلى ما ذكرته، فيصير ذلك سبباً في انقباض من يواكله، وإنما يريد ما يجري به من عادة الناس من إظهار الشره والدهاف فيه إلى حد السرف، حتى يمد يده إلى ما يلي غيره، ويتخطى ليدي الناس. وهذا ظاهر ... وقد ألم بهذه الطريقة المرقش فقال في الغزل. (الطويل)

وإنِّـــي لأَسْـــتَحْيي فُطَيْمَـــةُ جَانِبَـــا ... لَمِيـــعًا وأَســـتَحْيي فُطَيْمَـــةُ طَاعِمَـــا
وإنِّـــي لأَســـتَحْيِيكِ والخَـــرْقُ بَيْنَنَـــا ... مَخَافَـــةُ أَنْ تَلْقَـــى أَخَـــا لـــيَ لائِمَـــا

ألا ترى أنه أجمل ما فصله هذا الشاعر في قوله: استحيي طاعماً، وختماً. هذا مع البعد بينه وبين صاحبته " (٢).

ومن التأصيل بالمثل، ما جاء في قول آخر: (البسيط)

لَكِنَّـــهُ حَـــوْضُ مَـــن أَوْدَى بِإِخْوَتِـــهِ ... رَيْـــبُ الزَّمَـــانِ فَأَمْسَـــى بَيْضَـــةَ البَلَـــدِ

"هذا الكلام فيه تنبيه إلى شدة فاقته إلى من يذب عنه، وتأكد حزعه لما فقه من الصيانة بإخوته، فيقول لكنه حوض رجل فرق الدهر بينه وبين من كان يعتر به، ويدفع الظلم والهضيمة عن نفسه بمكانه، فأمسى لا ناصر له، ولا دافع دونه، كبيضة البلد. وقد قيل في بيضة البلد: إنه أراد بيض النعام، لأنها سيئة الهداية، فتضع بيضها في موضع، ثم تتركه ضلالاً عنه فتضيع، وربما تذهب وتحضن بيض غيرها تظن أنها بيضها. وقد ضرب المثل بها فقيل: (المتقارب)

كَنَاقِـــةِ بَيْـــضَتِهَا بِـــالعَرَاءِ ... وَقَيْـــسِيَّةٍ بَـــيْضَ أُخْـــرَى جَنَاحَـــا

وقد قيل: إن بيضة البلد هي الكمأة البيضاء تنشق عنها الأرض - وهي الفقع - فتطؤه الماشية، وتنقره العافية، ولذلك قيل: أذل من فقع بقاع. وكما ضرب المثل ببيضة البلد في الذل ضرب المثل بها في العز أيضاً. وقد مضى ذكرها. وأنشدني بعضهم لأخت عمرو بن عبد ود ترثي أخاها، وكان أسير المؤمنين عليه السلام قاتله: (البسيط)

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١)، (١ / ٢٤ ، ٢٥).
(٢) نفسه: حماسية (٧٥٨)، (٢ / ١٧١٣ ، ١٧١٤).

لـــو كـــانَ فَابِـــلُ عنـــرٍو غَيْـــرَ فَابِلِـــهِ بَكَيْتُـــهُ مـــا أَقَـــامَ الـــرُّوحُ فـــي جَـــسَدِي
لكـــنَّ فَابِلَـــهُ مَـــنْ لا يُعَـــابُ بِـــهِ وكَـــانَ يُـــدْعَى فَـــدِيمًا بَيْـــضَةَ البَلَـــدِ

والمراد إذا مدح أنه لا نظير لها، ولا أخت معها، فالنعامة تطيف بها إشفاقًا عليها ... وبيضة الإسلام: جماعتهم. ويقال تفرى بيضة الأرض عن بني فلان، إذا تناسلوا وكثروا. وبيضة الخدر قد تقدم القول فيه" [1].

كما "كان وضوح المعاني وغموضها من التغييرات التي عنى بها نقدة المعاني في تأصيلهم لها" [2]، كما في قول يحيى بن زياد: (الطويل)

نَفَّضْـــا بِـــكَ الأَيَّـــامَ حتَّـــى إذَا أَنْـــتَ تُرِيـــدُكَ لَـــم تَـــسْطِعْ لهـــا عَنْـــكَ مَـــدْفَعَا

" يجوز أن يريد بالأيام نوائب الأيام وأحداثها فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، ويجوز أن يريد الأيام أنفس الأحداث، فسماها أياماً كما تسمى الوقعات بها، وكما قال الله عز وجل: "وتلك الأيام نداولها بين الناس" " [3].

"وكذلك فإن تصعيد المبالغة حتى حدّ الإفراط كان وجهًا بيّنًا من وجوه اهتمامهم بالتغيّر الطارئ على المعنى الأصلي" [4]. فشاعر الحماسة في قوله: (الطويل)

أَبَـــوْا أَنْ يُبِيحُـــوا جَـــارَهُمْ لعَـــدُوِّهِم وقَـــدْ ثَـــارَ نَقْـــعُ المَـــوْتِ حتَّـــى تَفَـــوَّرَا

"بأن" الفعل لبني التيم. يقول: امتنعوا من أن يخلوا بين جيرانهم قبيلة كلب وبين أعدائهم حمير، وقد ارتفع غبار الموت حتى التف في الجو. وأراد بالجار والعدو الكثرة، إذ كان المراد بهما القبيلتين، وإنما أضاف النقع إلى الموت تهويلاً، ويجوز أن يريد بالموت الحرب. وتكوثر: تفوعل من الكثرة، يريد تراكم الغبار والتفافه. وهذا الذي أشار إليه بقوله تكوثر من التراكم، جعله بعضهم كالسحاب، وجعله بعضهم يسد عين الشمس حتى ظهرت له الكواكب، وحتى صار النهار بسببه كالليل. وتجاوز المتنبي جميع ذلك، حتى بلغ حدًا من الإفراط مُسْتَنْبَعًا فقال: (الكامل)

عَلَـــقْتُ سَـــنَابِكُهَا غَلَيْهَـــا عِثْيَـــرًا لَـــو تَبْتَغِـــي عَنْقًـــا عليـــه أَمْكَنَـــا

وإذا أردت بالموت السنة يكون المراد: كأن الموت أثار الرهج في سلب النفوس حتى كثف في الهواء. وهذا مثل" [5].

وهكذا يتضح لنا أن الشارح يعتمد في أغلب موازناته على "الفكرة الأصل المحتوي المشترك بين الأبيات، فلا يلتفت إلى التراكيب المشتركة، ولا أشكال المعاني، ولا الصور، و قد تند عنه أحيانا إشارات عن التأثير المشترك للأبيات على المتلقي من خلال المبالغة مثلا" [6].

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٢٦٧)، (١ / ٨٠٣ ، ٨٠٤).
(٢) د/مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ٢٠٨.
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٢٨١)، (١ / ٨٦١).
(٤) د/مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ٢٠٩.
(٥) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١١٣)، (١ / ٣٣٨).
(٦) د/أحمد مسرة: شرح المرزوقي، النظرية والإجراءات: ص ١١٦.

ب ـ الأنموذج الجمالي في الوصف [1]:

عند الشراح في إطار عنايتهم الفائقة بالمعنى إلى الوقوف وقفة تأمل أمام الوصف؛ ليستشفوا ما وراءه من أسرار جمالية، وهو أمر نابع من إدراكهم لأهمية الصورة في إبراز المعنى المقصود، وتقريبه للمتلقي، "فالتصوير ركن أساس في الشعر ينهض على حركة تسير عادة من المجرد إلى المحسوس، فالشارح مدعو إلى اكتشاف تلك السيرورة طلبا لمعاني القول وتيقظا لمقاصده" [2]؛ لذلك نراهم يقفون كثيرا عند صفات السيف، والخيل، وبقر الوحش، والرماح، والأسنة، وغير ذلك ممّا جاء في شعر شعراء الحماسة، كما نبهوا على مدى موافقتها أو مخالفتها لما تعارف عليه العرب وأثر عنهم وورد في أشعارهم، فاستحسنوا الموافق، واستقبحوا المخالف.

فممّا أثنوا عليه لأنه وافق ما تعارف عليه العرب وصف الكتائب بالكثرة في العدد في بيت أنيف بن زبان النهشلي من طويل: (الطويل)

أبـــى لَهُـــمْ أَنْ يَفرَقُـــوا الـــضَّيْمَ أَنَّهُـــمْ ... بَنُـــو نَـــاتِقٍ كانَـــتْ كَثِيـــراً عِيالُهـــا

"هذا الكلام من صفة الكتائب وأن يعرفوا في موضع المفعول لأبي وفاعله قوله أنهم بنو ناتق وقوله كانت من صفة الناتق والناتق المرأة الكثيرة الأولاد يقال نتقت تنتق نتقا وأصل النتق الاقتلاع كأنها اقتلعت ما في رحمها اقتلاعا وفي القرآن "وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة" أي اقتلعناه من أصله فجعلناه كالمظلة على رؤوسهم وكثرة العدد مما يفخر به يقول منع لهم معرفة لضيم كثرة عددهم أي أبى لهم أن يضاموا كثرة عددهم وجعل العيال كناية عن الأولاد وهو جمع عيل كجيد وجياد" [3].

وكذلك وصف الرماح بالسمر في قول أبو عطاء السندي: (الطويل)

تَذَكَّرْتُـــكِ والخَطِّـــيُّ يَخْطِـــرُ بَيْنَنَـــا ... وقَـــدْ نَهِلَـــتْ مِنَّـــا المُثَقَّفَـــةُ الـــسُّمْرُ

" "المثقفة"، الرماح المقومة، و"الثقاف"، خشبة تقوم بها الرماح، وجعلها "سمرًا"، من أجل أن الرماح إذا أحدث من الغابة وقد أدركت وتم نضجها كانت سمرًا، وذلك أصلب لها وأحسن، وإذا عولجت كانت صعرًا لا خير فيها " [4].

ومنه أيضًا وصف الفارس بخفة العجز وقلة اللحم على الفخذ في قول آخر: (الوافر)

خَفِيـــفُ الحَـــاذِ تَـــسْأَلُ القَيْـــالِي ... وَغَيْـــرُكَ لِلـــصُّخابَةِ غَيْـــرُ غَيْـــدِ

" يقول: خير الناعي بموت الزبير، فقلت معظماً لشأنه، ومفخماً للتأثير بمكانه: إنك تذكر موت قريع أهل الحجاز وأهل نجد ومختارهم، ومن لا تحق الفتوة بالاتفاق إلا له. وقوله خفيف الحاذ وصفه بخفة العجز وقلة اللحم على الفخذ ، وذلك مستحب من الفرسان" [5].

---

(1) د/السيد حسانين: التمثيل البلاغية والنقدية في شروح الفصحاء على شعر أبي العلاء، ص ٣٤٥.
(2) د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٨٣.
(3) التبريزي. شرح ديوان الحماسة (١ / ٨٨).
(4) التنوخي. معاني أبيات الحماسة المعاسرة رقم (٧)، ص ١٧.
(5) المرزوقي. شرح ديوان الحماسة حماسية (٣٤١)، (١ / ٩٨١).

وطول عنق الفرس وعظم البركة فيه مما يستحب منه، يقول الحرث بن حمام الشيباني: (السريع)

وتَنْتَبِي يَشْفَعُهُ بِي أَجْزِ ... مُسْتَتْئِمُ البَرْكَةِ كالرَّاكِبِ

" زعموا أن الراكب هاهنا فسيلة لم تنقطع من أمها ويجوز أن يعني طول عنق الفرس وأنه يوازي الراكب على ظهره ويكون هاديه هو الذي يستتم البركة فيكون الكاف من قوله كالراكب في موضع رفع بفعلها ولا يمتنع أن يكون الفعل للبركة والكاف في موضع نصب والبركة والبرك الصدر وقيل هو وسط الصدر وهو حيث انضمت الفهدتان من أعاليهما وعظم البركة مما يستحب في الفرس وأراد أنها عظمت حتى كأنها قد استتمت أي تقدمت وتقدم واستتم وتأخر واستأخر سواء وقال بعضهم معناه أنه مشرف الصدر أشراف الراكب وقيل كالراكب يقول هو من أشرافه كأنه راكب لا مركوب ومن هاهنا أخذ أبو تمام: (الطويل)

أَنَاسٌ إِذَا شُدَّعَى بَزَلٌ إِلَى الوَغَى ... رَأَيْتَهُمُ زَجْلَى كَأَنَّهُمُ رُكَّبُ

يصفهم بطول القامات " [1].

وكما امتدح الشراح الموافق من الوصف وأثنوا عليه، فقد عابوا المخالف منه وأزروا عليه، كما جاء في وصف اتساع الطعنة بالنهر، في قول قيس بن الخطيم الأوسي: (الطويل)

ملكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا ... يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا

"المعنى شددت بهذه الطعنة كفي ووسعت خرقها حتى يرى القائم من دونها الشيء الذي وراءها ... ومعنى أنهرته: وسعته حتى جعلته كالنهر سعةً. والنهر نفسه سمي بذلك لاتساعه. ومنه المنهرة، وهي فضاءٌ بين بيوت الحي يلتقون فيه كمجلسهم. وفي هذا الوصف صرفٌ مستنكر وخروجٌ عن القصد مستهجن" [2].

هذا وتزخر شروح الحماسة بالعديد من الصفات التي ألمح إليها الشراح في مواطن عدة، ونوهوا عن رأيهم فيها إما استحسانا أو استقباحا، وذلك وفقا لصفات النموذج والمثل في الشعر العربي الذي استضاء الشراح به في كثير من الصفات التي حرروها، والتحليلات التي أصدروها.

ج - تناسق المعاني [3]:

إن المتتبع لشروح الحماسة يدرك مدى اهتمام الشراح بوحدة المعنى في الأبيات الشعرية، فلم يكن وكدهم - كما أشرنا سابقا - أن يجعلوا معنى البيت بمفرده هو غاية في ذاته، بل وسيلة ينفذوا بها إلى أهدافهم التي تتمثل في الكشف عن معاني الأبيات ككل، كوحدة واحدة، وبيان مقاصدها "حيث لا انفصام بين شرح بيت وآخر، وإنما شرح

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة. (١ / ٧٤).
(٢) المرزوقي. شرح ديوان الحماسة: حماسية (٣٦). (١ / ١٨٤).
(٣) د/أحمد حمدان. المعاني اللاهية والنفسية في شروح القدماء على شعر أبي العلاء، ص ٣٤٦.

البيت لبنة في بناء المعنى الكلي للمقطوعة أو القصيدة" [1]، بحيث توشك أن تكون القصيدة "كالبيت والبيت كالكلمة تسالما لأجزائه وتقارنا" [2].

وكما أشار الشراح إلى الأبيات التي تلتحم فيها المعاني بحيث تصبح وحدة متناسقة، أشاروا كذلك إلى تلك الأبيات التي فقدت هذا التناسق والتواصل في المعنى، من خلال تنويههم - خاصة المرزوقي - ببعض المآخذ والعيوب التي إن وقعت في شعر الشاعر أدت إلى ذلك الانفصام والانفصال في المعنى، أهمها [3]:

١- التناقض وعدم استواء المعنى:

يدعم الأسلوب الأدبي مجموعة من الصفات الإيجابية التي يجب أن يتحلى بها العمل الأدبي؛ لتدعم المعنى، وتثير الشعور، وتبعث في النفس أفكارا تناسب الموضوع، مثل "مطابقة الصوت للمعنى، وتناسب أجزاء الكلام، وتقطيع الجمل وتقابلها، واستيفاء معانيها إلى غير ذلك .." [4]، أو ما يمكن أن نعبر عنه بالقول: استواء المعنى وعدم تناقضه.

وعدم التزام الشعراء باستواء المعنى و تناسقه، من العيوب التي أخذها النقاد عليهم، لاسيما إذا أتى بمعنى آخر يخالف روح واتجاه المقطوعة أو القصيدة التي ينظمها، مما يوقعه في التناقض وعدم الاستواء في المعنى.

ومن أجل ذلك كان قول سنان بن الفحل: (الوافر)

وقبلك زيد خضم قد تغالى ... علي لما بلغت ولا دعوت

سليمًا من التناقض والفساد، حيث يرى المرزوقي أنه "تبه على حسن ثباته في وجه الخصوم، وتمرنه بمجاذبتهم قديماً وحديثاً، وتحككه بهم على احتفال منهم في مناوأته سالفاً وآنفاً، فيقول: وقد بليت قبلك بقوم قد تألبوا علي وتعاونوا، فلم أجزع لما منيت بهم جزعاً فاحشاً، ولا استنصرت عليهم غيري عند دفاعهم استنصاراً مكروهاً. والهلع: أفحش الجزع، وتمالؤا، هو تفاعلوا من قولهم هو مليء بكذا. فإن قيل: كيف قال هلعت، وقد قال فيما قبله: فكنت أبكي من الظلم المبين أو بكيت وهل الهلع إلا البكاء والجزع؟ قلت: إن الهلع هو الجزع الفاحش الذي يظهر فيه الخضوع والانقياد، فهذا هو الذي انتضح منه، وزعم أنه لا يظهر عليه. والبكاء الذي ذكر أنه شارفه أو كاد يشارفه قد بينا أنه كان منه على طريق الاستكاف والامتعاض؛ فإذا كان كذلك فإنه لم يكن عن تخشع وتذلل، ولا انقياد واستسلام، وسلم الكلام من التناقض والفساد" [5].

---

(١) د/أحمد حسان المصري: شروح الشعر الجاهلي، مناهج الشراح (٢ / ٢٣٢).
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، مقدمة الشارح ص ١٠.
(٣) د/مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس. ٢٢٢ ، ٢٢٣، مع إضافة بعض العناصر من قبل الباحث.
(٤) د/أحمد حسان المصري: شروح الشعر الجاهلي، مناهج الشراح (٢ / ٢٣٩).
(٥) - ر: شرح ديوان الحماسة حماسية (١٩٢)، (١ / ٥٩١).

٢ـ عدم استواء الترتيب المنطقي للمعاني:

لذلك نوّه المرزوقي بمراعاة عمرو بن معد يكرب هذا الترتيب، ولثنى عليه،ووجّه به تفسير بيته: (مجزوء الكامل)

مـــــــا إنْ جَزِعْـــــــتُ ولا هَلِعْـــــــ ـــــــتُ ولا يَـــــــرُدُّ بُغَـــــــايَ زَنْـــــــدا

"وقد أعطى الترتيب حقه لأنه ارتقى فيه من الأدون إلى الأعلى، إذ كان قوله ما إن جزعت وإن كان مستصلحاً لجميع أنواعه مفيداً للأدوان، وقد جاء بعده ولا هلعت ... "[1]. فعمرو بن معد يكرب في البيت السابق تصاعد في حزنه من الأدنى إلى الأعلى، عندما جعل الجزع أولا الذي يمثل درجة أدنى من الهلع، "فكأنه قال: ما حزنت عليه حزناً هيناً قريباً، ولا فظيعاً شديداً. وهذا نفيٌ للحزن رأساً" [2].

وعدم مراعاة هذا الترتيب قد يؤدي إلى فساد الرواية، والتنبيه على عدم صحتها، وهو ما أشار إليه المرزوقي في معرض تعليقه على بيت سعد بن مالك: (مجزوء الكامل)

والنَّقْـــــــزُ بَعْـــــــدَ القَـــــــزْ إذْ كَـــــــرَةِ التَّقَـــــــدُّمِ والنُّطَـــــــاخ

"بين ما يحتاج إليه الصبار من الأفعال في الحرب، كما بين الآلات التي من شرطه استصحابها فكأنه قال: ويبقى لجاحمها الكر بعد الفر في وقتٍ يكره فيه الإقدام والتقدم، والنطاح والتجرد. وبعضهم يروي هذا البيت في غير هذا الموضع، والصواب هذا الترتيب" [3].

وقد لا يبالي الشاعر بمراعاة الترتيب المنطقي للمعاني إذا أمن الالتباس، كما جاء في قول المساور بن هند: (الكامل)

ورأيْـــتُ شَـــيْخًا قَـــدْ تَخَنَّـــى صُـــلْبُهُ يَمْـــشِي فَـــيَقْعُدُ أو يَكِـــبُّ فَيَظْـــعَنُ

"يقول: ورأين شيخًا منحني الصلب، محدودب الظهر، يمشي مشية المتعسف إذا استمر في المشي، أو يتعثر فيسقط لوجهه. وكان الواجب أن يقول: أو يعثر فيكب، لأن العثار قبل السقوط للوجه، لكنه لم يبال بتغيير الترتيب، لأمنه من الالتباس، وهذا دون ما يجيء في كلامهم من القلب، مثل قوله: (المديد)

كما أَسْلَمَتْ زَخْشِيَّةٌ وَهْنًا

وكقول امرئ القيس: (الطويل)

كما زُلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمُتَنَزَّلِ " [4].

٣ ـ عدم الإدراك المنطقي للمعاني:

يقول التبريزي معلقا على قول شاعر الحماسة: (المنسرح)

حَنَّـــــى تَحَنِّـــــى البُـــــرَاةُ أَنْهُـــــمْ عِنْـــــدَكَ أَمْـــــنًا فِـــــي القِـــــدِّ والخَنَـــــقِ

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسة (٣٤)، (١ / ١٧٩).
(٢) نفسه (١ / ١٧٩).
(٣) نفسه حماسة (١٦٧)، (١ / ٥٠٣).
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسة (١٥٥)، (١ / ٤٦٠ ، ٤٦١)، وانظر كذلك: ابن جني (التنبيه على مشكل أبيات الحماسة) حماسة (٣٥٠)، ص ٣٩٣.

"قال أبو هلال هذا الشعر معيب المعنى ألا ترى انه ذكر الممدوح فقال أنك تطلق الأسرى حتى تمن الطليق أنك تأسره وتطلقه ولا أعرف كيف يتمنى الأسر ثم الإطلاق وهو مطلق معاني وأن أراد انه يتمنى ذلك لأنه يجد عندك إحساناً فلم لا يتمنى الإحسان مع الإطلاق ويتمناه مع الأسار وباب التمني مفتوح يجوز أن يدخله من كل وجه" [1].

٤ ـ عدم المقاربة في المعنى:

قبيت السموأل بن عاديا: (الطويل)

فَنَحْنُ كَمَاءِ المُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ

قال: "أبو هلال هذا البيت معيب لأن الكهوم والعضاء ليسا من ماء المزن في شيء وكان ينبغي أن يقول ونحن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل أكف أي ونحن سيوف لا يعتريها كهوم ولا يثلمها كليل" [2].

د ـ طرافة المعنى وغرابته [3]:

يقول المرزوقي في هذا المعنى: "وقد كان يتفق في أبيات قصائدهم ـ من غير قصد منهم إليه ـ اليسير النزر، فلما انتهى قرض الشعر إلى المحدثين رأوا استغراب الناس للبديع على اقتدائهم فيه أولعوا بتوريده إظهارا للاقتدار، ودهليا إلى الإغراب، فمن مفرط ومقتصد، ومحمود فيما يأتيه ومذموم، وذلك على حسب نهوض الطبع بما يعمل، ومدى قواه فيما يطلب منه ويكلف، فمن مال إلى الأول فلأنه أشبه بطرائق الإعراب، لسلامته في السبك، واستوائه عند الفحص، ومن مال إلى الثاني فلدلالته على كمال البراعة، والاقتدار بالغرابة" [4].

ويبدو هذا بوضوح عند المرزوقي في شرحه، فقد تعرض لنكر نماذج من شعر هؤلاء الشعراء، يتمثل فيها طرافة وغرابة المعنى عند كل منهم، مستحسنا إياها، معجبا بها. ويتضح هذا بالمثال التالي؛ يقول زفر بن الحارث الكلابي في الصبر على القتال والنزال: (الطويل)

مَنَيْنَاهُمُ فَأَمَّنَّا مَنُونًا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى المَوْتِ أَصْبَرَا

" يقول: قابلناهم بمثل ما بدءونا به من سقي كأس الموت، لكن القتل كان فيهم أعم، ولهم أشمل. وحمل ذلك فيهم كالصبر منهم عليه. ويقرب أن يكون قول الله تعالى: "فما أصبرهم على النار" على هذا الوجه. كأن النار حقت عليهم ووجبت، بما كان منهم من المعصية، فجعل ذلك فيهم كالصبر منهم عليه، ولذلك قال بعض المفسرين في معناه: ما أعملهم بعمل أهل النار. كأن إصرارهم على ذلك العمل كالصبر منهم على النار. ورد الآية إلى البيت وإجراء القول فيها على هذا الحد غريبٌ حسنٌ" [5].

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة. (٤ / ٨٢).

(٢) نفسه. (١ / ٥٩ ، ٦٠)، وانظر: أبو هلال العسكري: (الصناعتين): ص ١٤٦، حيث يقول معلقا على البيت. " ليس في قوله: "ما في نصالنا كهام". من قوله: "نحن كماء المزن" في شيء، إذ ليس بين ماء المزن والنصاب والكهوم مقاربة، ولو قال: ونحن لبوث الحرب، أو أولو الصرامة والشدة ما في نصالنا كهام لكان الكلام مستويا، أو نحن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل لكنت لكل حببا ".

(٣) د/ السيد حمدان: التصاقها الملاءمة والمناسبة في شروح القدماء على شعر أبي العلاء، ص ٣٥١.

(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، مقدمة الشارح، ص ١٣.

(٥) نفسه: الحماسية (٢٨)، (١ / ١٥٦).

وكما في قول رويشد: (المتقارب)

فمـــــا فـــــوقَ ذُلِّـــــتِكُمْ ذِلَّـــــةٌ ولا تحـــــتَ موضِـــــعِكُمْ موْضِـــــعُ

"قوله فما فوق ذلكتكم طابق بتحت وفوق فيه، وهو غريب حسن يريد: لا مرتبة في الذل أعلى من مرتبتكم، فإنها الغاية القصوى؛ ولا موضع أشد تأخراً وانحطاطاً في العز من موضعكم، فإنه المنزل الأخس الأدنى. وقوله غير السداد، يريد به تنطق النطق غير السداد" [1].

إلى آخر مثل هذه الأمثلة والنماذج الشعرية التي تنتشر بين أرجاء شرحه.

هـ - التكـــرار [2]:

يحرص شراح الحماسة كل الحرص على "توضيح نوعية الكلام وضروبه الفنية ووسائله المؤدية للمعنى، بما يتصل و مقتضى الحال" [3]. ومن تلك الوسائل والأساليب التكرار، وهو وإن لم يستحسنه كثير من الشراح - كما أسلفنا [4] - إلا أنه ليس كله معيب، خاصة إذا علمنا أن هذا الضرب يتصل في جانب ما بنوع من الإيقاع الدلالي. كانت العرب تستحسنه إذا حدث تغير في الصيغة أو الأسلوب، بشكل يكسب المعنى جديدا في كل مرة يتكرر فيها "فالتعاود تجسمه المعاني بدل المباني إذ يتفق أن يدرج الشاعر في سلك النظم كلمات مختلفةً علاماتُها متَّحدةً معانيها حدَّ التطابق. وقد كانت العرب تستحسن ذلك .. فكان الشاعر يوهم بالمختلف على مستوى الدال ليفاجئ المتلقي بالمؤتلف على مستوى المدلول في شكل عدول لا منتظر، وهو ما قد يمثل سبب استحسان العرب لهذا الضرب من الإيقاع الدلالي" [5]. وقد حاول كل من المرزوقي والتبريزي -وهما الشارحان اللذان عُنيا أكثر من غيرهما بإبراز هذه الظاهرة في أشعارهم - من خلال نظرتهما الفنية العميقة، تتبع المتغيرات وأوجه الخلاف التي طرأت على المعنى المكرّر في مرّاته المتعددة، ومن أهم مظاهر هذا الخلاف:

ـ المخالفـــة: كقول تأبط شرًا: (الطويل)

إذا فـــــزَّهُ فِـــــي غَثْلَـــــمٍ تَهَلَّلَـــــتْ نَوَاجِـــــذُ أَفْـــــوَاهِ المَنَايَـــــا الـــــضَّوَاحِكِ

"قوله في عظم قرن إذان بأنه لا يتعرض له إلا من يقاربه بأسا وشدة ونسبة التهلل إلى النواجذ مجاز وسعة وهذا كما يقال سر فلان بكذا حتى صار لكل سن له ضحك وقد سمي ما يبدو من الأسنان عند الضحك الضواحك وقوله إذا هزه في عظم قرن أي إذا هزه وضربه به ضحك الموت وهو مثل فكأنه قال إذا هزه لعظم قرن وقد تقام حروف الصفات بعضها مقام بعض إذا لم يشكل ويحتمل أن يكون المراد أنه إذا ضربه به نشب في عظمه فهزه فيه أي حركه ليتخلص منه والتهلل الضحك شبه بتهلل البرق ولمعانه وهو خلاف قوله والموت خزيان ينظر" [6].

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٦١٩)، (٢ / ١٤٧٠ ، ١٤٧١).
(٢) د/السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح التلخيص على شعر أبي العلاء، ص ٣٥٢.
(٣) د/أحمد جمال العمري: شروح الشعر الجاهلي ، مناهج الشراح (٢ / ١٨٦) .
(٤) انظر: ص ٩٣ من الكتاب، حيث الحديث عن تجنب تكرار الألفاظ.
(٥) د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٧١ ، ٧٢.
(٦) التبريزي: شرح ديوان الحماسة (١ / ٤٩)، والبيت المقصود هو أول تأبط شرًا : (١ / ٤٠) (الطويل)
فَـــلَاطَ ســـهَيْلٌ الأرْضَ لَـــمْ يَغْـــدُ بِـــهِ كَغَمْـــرَةِ المَـــوْتِ هَزِيـــزَانِ يَنْظُـــرُ

وكما توقف الشراح أمام معاني شعراء الحماسة المكرّرة بين مقطوعاتهم وقصائدهم المختلفة، فقد توقفوا أيضا عند المعاني المكررة داخل المقطوعة أو القصيدة الواحدة سواءً أكان سابقًا أو لاحقًا؛ فالمعنى الذي أجمله لفر في قوله: (الطويل)

وكُنْتُ إذا أرْسَلْتَ طَرْفَكَ رائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

مفصل في قوله: (الطويل)

رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أنْتَ صَابِرُ

وهو ما عبر عنه المرزوقي بقوله: " وقوله (رأيت الذي) تفصيل لما أجمله قوله (أتعبتك المناظر) " [1].

إن ما أثبتنا من معايير وأسس ليست إلا نبذا ـ تحفل الشروح بالكثير منها ـ على سبيل التمثيل لتعامل الشراح مع المعنى الشعري، وقد بدا غرضهم الأساسي تطويع المعنى الشرود وترويضه، تبرز فيها تمكن الشراح ـ بفضل ما توفر لهم من واسع الدراية بدقائق اللغة وأسرارها ـ من النجاح في الدفاع عن الشاعر في بعض الأحيان التي لجأ فيها إلى تكرار المعنى، دفاع مقترن بالحجج والبراهين، عبر أسلوب منطقي معلل، يؤكد صحة ما ذهبوا إليه، دافعا عنهم شبهة الحياد عن الحق، أو تعمل لأعذار واهية، مثل تعليل المرزوقي لتكرير معنى الوعيد في قول قوالٌ: (الطويل)

قُولا لِهَذا الغَرْمِ ذُو جَاءَ مُنَاعِيًا ... هَلُمَّ فَإنَّ المُسْتَرِيثَ النَّوَائِضُ

وإنْ أنَا حَمَضْنَا مِنَ المَوْتِ مَنْفَعًا ... وإنَّكَ مَخْتُومٌ فَهَلْ أنْتَ حَابِضُ

أظُنُّكَ دُونَ المَالِ لَوْ جِئْتَ تَبْتَغِي ... مُسَلَّقَةً بِيضَ النُّفُوسِ قَوَابِضُ

"فإن قيل: كيف استجاز تكرير معنىً واحد في بيتين على تقارب بينهما، وهلا اكتفى بقوله "هلم فإن المشرفي الفرائض"؟ قلت: إن قوله أظنك دون المال لو جئت تبتغي، بما دخله من التهكم والوعيد، وتكشف فيه عن الغرض المقصود، صار كأنه أدى غير ما أداه قوله هلم فإن المشرفي الفرائض. ومثله قول علقمة بن عبدة. (الطويل)

فَإنْ تَسْأليني بالنِّسَاءِ فَإنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

إذا شَابَ رَأسُ المَرْءِ أوْ قَلَّ مَالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

يُرِدْنَ ثَرَاءَ المَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ ... وَشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ

ألا ترى أنه لم ير المعنى متكرراً في البيتين، لما كان أحدهما يشتمل من الاستيفاء والبيان على ما لم يشتمل عليه الآخر" [2].

وكذلك تعليله لتكرير المعنى في قول دريد بن الصمة: (الطويل)

وَهَلْ أنَا إلا مِنْ غُزَيَّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غُزَيَّةُ أرْشُدِ

بالقول: "فإن قيل: إنه كرر معنىً واحداً في هذه الأبيات مرتين، لأن قوله إن غوت غويت قد اشتمل عليه كلت منهم وقد أرى مخاينهم وأنني غير مهتد. قلت: في الأول لقتص الحال التي دار عليها معهم، وفي الأمر بقيةٌ،

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. حماسية (٤٦٥)، (٢ / ١٢٣٨ ، ١٢٣٩).
(2) نفسه، حماسية (٢١١)، (١ / ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣).

وللنصح توجهٌ، وأنه اجتهد في ردهم إلى ما هو أرد عليهم وأنفع لهم، فلما عصوه في ذلك أمسك عنهم جارياً في الطريق الذي يسلكونه وإن علم الخطأ فيه. وقوله وهل أنا إلا من غزية بيانٌ لما دفعوا إليه بعد تبين الرشاد لهم، وابتلوا به من مقاساة سوء العاقبة لسوء اختيارهم، فقال: وما أنا إلا شريكٌ لهم فيما أشير لهم جهلهم وغوايتهم كما كنت شريكاً لهم لو رشدوا فيما كان يشير لهم رشادهم. فهو في الأول ذكر اتباعه لهم بعد النصح ناظراً من وراء رأيه ما يدفعون إليه ويمتحنون به، وفي الثاني ذكر انغماسهم معهم فيما أعقب لهم اختيارهم، وأنه شقي بمثل ما شقوا به في عقبى جهلهم أو بأشد منه، وإذا كان كذلك اختلف الحالتان والاتباعان" [1].

المبحث الثالث: التلازم بين الألفاظ والمعاني:

لقيت قضية اللفظ والمعنى اهتماما كبيرا من القدماء والمحدثين على السواء، وقد أفضت بكثير منهم إلى التأكيد بأهمية كل منهما للآخر، وحاجة أحدهما للآخر؛ طلبا للانسجام والتوافق في سلك النظم، وهذا الكلام ما عناه أبو هلال العسكري بالقول: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها و يعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ .. لأن المدار بعد على إصابة المعنى .. ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة .. " [2] . يربط بين الحسن اللفظ والمعنى رشيجة الإبداع الفني، وما ينتج عنها من وشائج وصلات أخرى تثري العمل الفني، وهو ما يعني "أن مفهوم الإبداع الفني لا يصل الحسب بين الحدين: اللفظ والمعنى، في قضية واحدة، لكنه أيضا يصنفها بصبغته، فيجعل اللفظ تارة ستارا شفافا، أو مرآة تعكس قوة الطبع المبدع، ويجعله تارة أخرى أصباغا تجمع" [3].

وقد نظر الشراح إلى هذه القضية - قضية اللفظ والمعنى - نظرة توافقية دون تفضيل أحد طرفيها على الأخر ، وجاءت تعليقاتهم وتحبيراتهم مؤكدة لهذا الاتجاه، جامعة بين المذهبين حسن المعنى واللفظ.

فالمرزوقي - مثلاً - توقف في مقدمة شرحه عند قضية اللفظ والمعنى، وأبان عنهما -تحت مبحث نظرية - أفضل إبانة، عندما ربط بين مدى التناسب بين اللفظ والمعنى والبلاغة، بالقول: "متى اعترف اللفظ والمعنى فيما تصوب به العقول فتعلقا وتلابسا متظاهرين في الاشتراك وتوافقا، فهناك يلتقي ثريا البلاغة فيمطر روضها، وينشر وشيها، ويتحلى البيان فصيح اللسان نجيح البرهان، وترى رائدي الفهم والطبع متبشرين لهما من المسموع والمعقول بالمسرح الخصب والمكرع العذب" [4].

وقد أسلمه ذلك إلى التأكيد على التصدي لـ "عمود الشعر"، والمفهوم النقدي له، حيث يقول: "فإذا كان الأمر على هذا، فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب، ليتميز تليد المصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث، ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه، ومراسم إقدام المزوقين على ما زوقوه، ويعلم أيضًا فرق ما بين المصنوع والمطبوع، وفضيلة الأتي السمح على الأبي الصعب، فنقول وبالله التوفيق: إنهم كانوا

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٢٧١)، (١ / ٨١٥).
(٢) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص ٨٤.
(٣) مجدي أحمد توفيق: مفهوم الإبداع الفني في النقد العربي القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧ م ، ص ٣٢٠.
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: ١/٧ .

يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات - والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا متافرة بينهما - فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار" (١).

أما عن عيار المعنى فيقول عنه: "فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه حنينا القبول والاصطفاء، مستأنسا بقرائنه، خرج وافيا، وإلا انتقص بمقدار شوبه ووحشيته" (٢).

فالمعنى عند المرزوقي - إذًا - "لا يكون صحيحًا شريفًا إلا إذا صانع العقل الناقد، والذوق المرهف واستوى له من القرائن والملابسات ما يدعو إلى القبول والأريحية والركون إليه، فإنما لم يسلم له ذلك انحدر عن مكانته السامية إلى مراتب، يراها الناقد أقل أو أدون، وفقًا لمقدار ما داخله من إخلال بما يرتضيه العقل المتوهج من روائع المعاني في المعارض الشعرية المختلفة" (٣).

أما عن عيار اللفظ فيقول عنه: "وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجملته مراعى، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عابت الجملة هجينًا" (٤).

معنى ذلك أن "اللفظة - هي الأخرى - مواصفات خاصة، فكما تحتكم إلى طبع الشاعر تتوقف في الوقت ذاته على ترددها وشهرتها في الاستعمال والتعبير، أي أن اللفظ يستمد نبضه الشعري في الصورة أو كيانه حيث جرى فيها دافقًا كالنبع الصافي ينبثق من مصدره، فإذا أعوزه الوارد ولم يجتمعوا إليه ويحتشدوا ليغترفوا منه ضاع أو اسن، فالمعول على طبع الشاعر وعلى نقل الأعراف العامة لهذا اللفظ ومدى تفاعلها معه، سواء أجاء وحده في هيئة كلمة مفردة أم جاء في صورة من الشعر، على أنه إذا ورد في صورة وجب أن تقوم بينه وبين جاراته في العبارة الشعرية الوشائج والروابط التي تضمه إليها ، فأما إذا جاء اللفظ مجنوذًا أو مبتوتًا عن نظيره في العبارة عاد الكلام هجينًا على حد تعبير المرزوقي" (٥).

ولعل مفهوم عمود الشعر لدى المرزوقي وأثره في تحديد عيار اللفظ والمعنى يذكرنا بتقسيم ابن قتيبة للشعر عندما قال: "لذبرّتُ الشِّعر فوجدتُه أربعة أضرب: ضربٌ منه حَسُنَ لفظُه وجاد معناه ... وضربٌ منه حَسُنَ لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ... وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ... وضربٌ منه تأخر معناه وتأخر لفظه ..." (٦). وساق الشواهد والأمثلة على كل نوع.

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة ١/٨ ، ٩.
(٢) نفسه ١/٩.
(٣) د/أحمد محمد أبو عيسى: المتصيا الأدبية والنقدية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة ص ٢١٢.
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة ١/٩.
(٥) د/أحمد محمد أبو عيسى: المتصيا الأدبية والنقدية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة ص ٢١٢ ، ٢١٣.
(٦) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: تحقيق / أحمد شاكر: دار المعارف بمصر: ١٩٨٢م ، ١/٦٤ وما بعدها.

والنصوص السابقة التي أوردتها للمرزوقي تُلخص وتعكس بوضوح موقف الشارح من قضية اللفظ والمعنى، وأنه كان من أنصار الفريق الذي مال إليهما معًا فلم يعلِّب أحدهما على الآخر.

وقد اتفق بقية الشرّاح، بصورة أو بأخرى، مع ما ذهب إليه المرزوقي –وان لم يفصّلوا تفصيله نظريًا – من ضرورة الاهتمام باللفظ والمعنى معاً من ناحية، ووجوب التلازم والتناسب بينهما من ناحية أخرى.

وقد أتاحت شروحهم وتحليلاتهم عن الأدوات التي سخروها في فهم النص الشعري؛ لتحقيق التلازم والانسجام بين ألفاظه ومعانيه، من قبيل السياق، الذي اتخذ الشرح من خلاله مسارات ثلاثة "مسارا باتجاه الألفاظ تحليلا وفكا، يعقبه مسار باتجاه المعاني بيانا واكتشافا وإظهارا واستنباطا وتوليدا واستصفاء وكشفا، ومسارا باتجاه خطة النص وشرحه تركيبا وبناء" [1].

ولعل المرزوقي من أكثر الشرّاح التفاتًا إلى هذا الجانب، واهتماما به، فتراه ينبه صراحة أو ضمنا على أهمية السياق ودوره في "فهم النص باعتباره ينهض على معان صيغت في ألفاظ انتظمت وفق خطة في التأليف"[2]، وهو ما نلمسه جليا من خلال اعتراضاته على بعض شعراء الحماسة؛ لأنهم – من وجهة نظره – لم يضعوا السياق في حسبانهم، أو لم يقدروه حق قدره عند نظمهم لأشعارهم. ولنتأمل – مثلاً – تعقيبه على هذا البيت، واعتراضه على سياق الكلام في قول أبو حكيم المري: (الطويل)

وكُنتُ أُرَجِّي مِن خَكيمٍ قيامَةً ... عَلَيَّ إذا ما الشَّخصُ زَلَّ ارتِدائيا
فَقُدِّمَ قَبلِي نَعشُهُ فَازتُ: دُونَهُ ... فَيا وَيحَ نَفسي مِن رِداءٍ عَلائِيا

"يقول: كنت أؤمل في حكيم ابني أن يمهل وينفس من عمره، فيقوم على إذا مت، ويرتدي نعشي اذا حملت، ثم بعد ذلك يقضي فيما أخلفه عليه، وأعتمد على كفايته وخلاقته، فخاب أملي وكذبني ظني، وقدم قبلي فارتديت أنا نعشه، فوا بلاء نفسي من رداه علاني بنعشه. وقوله "ارتدائيا" تفسير لقيامه عليه وقد وضع الماضي موقع المستقبل؛ أي يرتديني في ذلك الوقت. ولو ساق الكلام على تلازم لقال: قيامه علي وارتداءه إياي اذا ما النعش زال ارتدائيا، أي يرتديني، فيكون اذا ما النعش زال ظرفًا، وارتداني مفعول أرجى. أي أرجوه يرتديني اذا ما النعش زال" [3].

كما أن المرزوقي وجّه معاني الكثير من الأبيات اعتماداً على نظرته الكلية للمقطوعة أو القصيدة، وفي ضوء السياق العام للأبيات. ويتضح هذا من شرحه البيت الأخير من مقطوعة خُلِّدَ مولى العباس بن محمد: (الوافر)

أَمَا وَالرَّايَضاتُ بِذاتِ عِزقٍ ... وَمَن صَلّى بِنَعمانِ الأَراكِ
لَقَد أَضمَرتُ حُبَّكِ في فُؤادي ... وَما أَضمَرتُ حُبّا مِن سِواكِ
أَرَيتِ الأَميرَ بِصَرمِ حَبلي ... فَريهِم في أَحِبَّتِهِم بِذاكِ
فَإِن هُم طاوَعوكِ فَطاوِعيهِم ... وَإِن عاصَوكِ فَاعصِي مِن عَصاكِ

---

(1) د/أحمد الوتري: شرح الشعر عند العرب، ص ٣٥.
(2) نفسه: ص ٣٥.
(3) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٣٦٨)، (٢ / ١٠٥١).

"كان الواجب في قضية سياق الكلام أن يقول: وإن عاصوك فعاصيهم؛ فعدل عن الإتيان بالضمير إلى ذكر الظاهر، ليبين فيه ما يشنع به عليهم، وليظهر السبب الموجب للإغراء بهم، والانصراف عن رأيهم. ولو قال: فاعصيهم لم يبين ذلك فيه" (١).

وتزخر الشروح بالكثير من التوضيحات الجوهرية التي ساقها الشراح بين ثنايا شرحهم على أشعار الحماسة، والتي تربط بين دلالة الألفاظ في معناها العام أي ما تعلق بمضمون القول الشعري معاني ومقاصد، والسياق الواردة فيه، من قبيل: المشترك اللفظي والأضداد، مما مكّنهم من الوقوف على مقصود شاعر الحماسة؛ فتجدهم يقولون: "يريد به ها هنا" ، أو "أراد ها هنا" ... إلخ.

فمن المشترك كلمة (الشرب) في بيت الأقرع بن معاذ، يصف إبلا: (البسيط)

يُسْتَلْفُ الجَارُ شُبْرِيًا وَفِي خَابِيَةٍ ... وَلا يَبِيتُ عَلَى أَغْبَاقِهَا قَمِعُ

" "الشرب"، الماء بعينه، و يريد به ها هنا اللبن" (٢).

ومنه (النبع) في بيت زفر بن الحارث الكلابي: (الطويل)

فَلَمَّا فَزِعْنَا النَّبْعَ بِالنَّبْعِ نَفَضْنَهُ ... بِبَغْضٍ ، أَبَتْ عِيدَانُهُ أَنْ تَفَكَّرَا

"النبع: الرماح، وأراد ـ ها هنا ـ: الرجال" (٣).

أمّا الأضداد فمنها كلمة (نهلت) في بيت أبي عطاء السندي: (الطويل)

نَهَرْتُكِ والخَطِّيُّ يَخْطِرُ بَيْنَنَا ... وَقَدْ نَهِلَتْ مِنَّا العَنَاقَةُ وَالسُّمُرُ

"والاسم من نهلت النهل. والمورد: المنهل: وقد عد الناهل في الأضداد، لوقوعه على الريان والعطشان، وكأن حقيقة النهل أول السقي، والاكتفاء به قد يقع وقد لا يقع فلذلك استعمل للناهل في الري والعطش" (٤).

وكلمتي (السجود ، قلص) في قول إياس بن مالك بن عبد الله بن خيبري الطائي: (الطويل)

بِجَمْعٍ تَظَلُّ الأُكْمُ سَاجِدَةً لَهُ ... وَأَغْلامُ مَنْ لَفَّى وَالهِضَابُ النَّوَابِزُ

فَلَمَّا أَدْرَكْنَاهُمْ وَقَدْ قَلَّصَتْ بِهِمْ ... إِلَى الخَيْلِ خُوصٌ كَالخَنِيِّ هَتَوَابِزُ

"والسجود عندهم من الأضداد يكون في معنى الانتصاب والانحناء ... وقد يكون قلص من الأضداد يكون في معنى ارتفع وفي معنى قصر ..." (٥).

---

(١) السرزوقي: شرح ديوان الحماسة حماسية (٦٧)، (٢ / ١٣٧٦ ، ١٣٧٧).
(٢) القيسي: معاني أبيات الحماسة. الحماسية رقم (٧٧٤)، ص ٢٣٥، وانظر الحماسية رقم (٦٠٤)، ص ٦٩١.
(٣) ابن فارس: تفسير كتاب الحماسة: ص ٦٣.
(٤) السرزوقي: شرح ديوان الحماسة حماسية (٧)، (١ / ٥٦).
(٥) التبريزي: شرح ديوان الحماسة. (٢ / ٧٥)

وكلمة (عسعس) في قول الفلاح: (الطويل)

منى جدتا وانى أبيب بن عسعس ... بن الغين غيث بمنيق الزغد وابنة

"وعسعس من قولهم عسعس الليل إذا أقبل ظلامه وإنا ولى وهو من الأضداد ..." [1].

وفطن الشراح - كذلك - إلى أهمية السياق في تحديد دلالة هذا الحرف أو ذاك، كما يتضح في قول العجير السلولي: (الطويل)

هو الظلفر الميمون إن راح أو غدا ... به الركب والتلعابة المتحبب

"والتلعابة على بنائه التفوالة والتلقامة والهاء في آخره للمبالغة" [2].

وفي قول بعض بني عبد شمس بن قنعس: (البسيط)

لأنت هنالك بالأثل عاقب عالية ... أن قد أطاعت بإبيل أمس غاويها

"وهنالك ظرف ويكون للزمان والمكان جميعاً وزيادة اللام تكون للتأكيد فيه كأن البعد فيما يشار إليه بهنالك أبلغ مما يكون فيما يشار إليه بهناك وهذا على طريقة ما نقوله في ذلك وذاك" [3].

وقد وقف الشراح - كذلك - وقفة طويلة أمام الحروف وما يعتريها من تغيرات دلالية ، نبهوا عليها وأشاروا إليها، وأوردوا لها أمثلة تطبيقية من أشعار الحماسة، فدلالة الحرف قد تتغير إلى دلالة حرف آخر، ودلالة الأداة قد تتغير إلى دلالة أداة أخرى وفقا لـ "معايير دلالية تنتظم وقفها الحروف التي عدت في تراثنا المعرفي حقلاً ألسنياً يغطي مجالات شتى من المفاهيم تتعلق بصيغة الحدث وزمانه وهيأته، كما تتعلق بالمسند إليه وبدلالة الخطاب بحسب نسقه" [4]. والأمثلة على ذلك كثيرة، ولنقف عند تعليق المرزوقي على (إلى) في قول خلف بن خليفة: (الطويل)

عدلت إلى ذكر الغشبرة والهوى ... إليهم وقد تعداد فجدهم شغل

"والمعنى: وهواي معهم؛ لأن إلى بمعنى مع ، كما يقال هذا إلى ذاك" [5].

ومثله قول قيس بن الخطيم: (الوافر)

ولا يخطى الخريص بغير بعزص ... وقد يثبي إلى الجود المراة

"وقوله (إلى الجود) إلى بمعنى مع" [6].

ومما استعملت فيه (عن) بمعنى (بعد) قول زرعة بن عمرو: (الوافر)

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة، (٣ / ٤٢).
(٢) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٧٠٦)، (٢ / ١٦١٢ ، ١٦١٨).
(٣) التبريزي. شرح ديوان الحماسة: (١ / ١٤٢).
(٤) مدتور عبد الجليل: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١ م، ص ٢٠٤.
(٥) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، حماسية (٧٩٥)، (٢ / ١٧٦٨).
(٦) نفسه، حماسية (٤٤٤)، (٢ / ١١٨٨ ، ١١٨٩).

وتزيدنـــي الـــصفيرَ إلـــى مَـــذاهُ وتـــأميلي هـــلالا عـــنْ هـــلالِ

"وقوله وتأميلي هلالاً عن هلال، أي بعد هلال. ومما جاء فيه عن بمعنى بعد قولهم: سادوك كابراً عن كابر، لأن معناه كبيراً بعد كبير. والمراد: شغله أمله بما يتاح له في مواتنف الأيام من الخير، والتمكن من المراد"[1].

ويكثر استناد الشرّاح على الدلالة بقصد تحديد موضع تعلق الحرف بغيره، كما في قول الأرقط بن زعبل بن كليب العنبري: (الطويل)

يَلُـــوذُ أمَـــامي لـــؤذةً بِلَبَابِـــهِ وتَرْهَـــبُ عَنّـــا نَبْغَـــةٌ وَيَغَـــابِي

" الباء في بلبابه تتعلق بيلوذ ولا يجوز أن تتعلق بلوذة لأن الفعل والمصدر إذا اجتمعا فالعمل بالعمل أولى " [2].

عمد الشراح في إطار سعيهم إلى تحقيق التلازم والانسجام بين الألفاظ والمعاني إلى ربط المقام بالمقال، إضافة إلى فضاء الإنشاد والملابسات المحيطة بإنشاء القول، فعتبة بن بجير الحارثي في قوله: (الطويل)

فقـــام أبـــو ضَـــوْءٍ كَـــرِيمٌ كأنَّـــهُ وقـــد جَـــدَّ مِـــن فَـــزَعِ الفُكَاهَـــةِ مـــازِحُ
إلـــى جِـــذْمِ مـــالٍ قـــد تَهَكَّنَـــا ســـوامَهُ وأغراضُنَـــا فيـــهِ بَـــوَاقٍ صَـــوَالِحُ

نجد "قوله إلى جذم مال تعلق إلى بقام، ويريد بالقيام غير الذي هو ضد القعود، وإنما يريد به الاشتغال له بما يؤنسه ويرحب منزله ويطيب قلبه. على ذلك قوله تعالى: "إذا قمتم إلى الصلاة"، لأنه لم يرد انتيام المتعمد للقعود، بل أراد التهيؤ والتشمر له" [3].

كما نجدهم يعمدون - أحيانا - في إطار سعيهم لتحقيق التلازم بين اللفظ والمعنى إلى ذكر وجه الخصوصية في اختيار هذا اللفظ أو ذاك دون غيره مع التعليل، وكذلك تنبيههم على تلك الألفاظ والتراكيب التي لم يوفق الشعراء في وضعها ضمن سياقها المناسب الذي يقتضيه المعنى و الأسلوب، وهو ما قد أشرنا إليه سابقا أثناء الحديث عن نقد لغة شعراء الحماسة وتذوقها [4].

يرتبط بذلك المسلك شروع الشراح في إبداء آرائهم واقتراحاتهم في كل ما من شأنه يحقق جودة المعنى وانتظامه، سواء أكان هذا بالإضافة أو الحذف. فكبد الحصاة العجلي في قوله: (الوافر)

ألا هَلَـــكَ الفَكَـــعْرُ فأســـتراحَتْ خَـــوالِيَ الخَيْـــلِ والحُـــبِّي الخَرِيـــدُ

"يصفه بأنه كان يبعد الغزو فلا يبقي على الخيل وأن حتيت وحبي حريد أي منفرد ... وقال أبو هلال حوافي الخيل التي كان يحفيها لكثرة غزوه عليها، والجيد هنا حفيات الخيل مخففة من حفي يحفى فهو حف إذا أحتك حافره من كثرة السير، والحافي خلاف الناعل وليس له هنا موضع لأن خيل العرب لم تكن تنعل فيقال أن هذا الرجل وحده

(1) المرزوقي. شرح ديوان الحماسة حماسية (٧٧٦). (٢ / ١٧٣٦ ، ١٧٣٧).
(2) التبريزي. شرح ديوان الحماسة (٢ / ١١٢)
(3) المرزوقي. شرح ديوان الحماسة (حماسية (٦٧٥) . (٢ / ١٥٦٠ ، ١٥٦١) .
(4) انظر ما سبق في نقد لغة شعراء الحماسة وتذوقها

كان يحفي خيله لكثرة اشتغاله عن أعمالها أو لغير ذلك من الأسباب. والجريد المنفرد لو لم يقل الجريد كان أجود للوصف لأنه لم يغز المنفرد من الأحياء إلا لعجزه عن مجتمع الناس ..." (١).

ونراهم في أثناء ذلك يسلطون الضوء على جانب مهم من جوانب تحقيق التلازم بين اللفظ والمعنى، ألا وهو مشاكلة اللفظ للمعنى، وليس المقصود بالمعنى هنا الموضوع له اللفظ بل العرض المفاد من ألفاظ التركيب، "فالمراد أن الغرض الشريف تناسبه الألفاظ الموضوعة لمعان حميدة، وأن الغرض الخسيس تناسبه الألفاظ الموضوعة للمعاني الخسيسة سواء كانت المعاني حقيقية أم كانت مجازية ومستعارة: فمقام المديح والرثاء مثلا يناسبه المعاني الحميدة، ومقام الهجاء يناسبه المعاني الذميمة" (٢)، وهذا ما اقتضاه قول المرزوقي فيما يأتي بعبارة مشاكلة اللفظ للمعنى "وكان اللفظ مقسوما على رتب المعاني قد جُعل الأخص للأخص، والأخس للأخس، فهو البريء من العيب" (٣).

وقد التفت الشراح إلى ذلك ونبهوا عليه، ونرى منهم من أبان عن معياره الذي ينظم مسلكه بالقول: "وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية:طولُ الدُّرْبة ودوام المدارسة، فإذا حكّمَ التباس بعضها ببعض، لا حياء في خلالها ولا نبْوٌ، ولا زيادة فيها ولا قصور. وكان اللفظ مقسوماً على رُتب المعاني قد جُعل الأخصُّ للأخص، والأخسُّ للأخسّ، فهو البريء من العيب" (٤).

والمرزوقي من أكثر الشرّاح الذين مسوا هذا الجانب في أشعار الحماسة، وأشاروا إليه، وكشفوا عنه أثناء تناولهم أشعار الحماسة بالتفسير، ونظرة متفحصة للشرح تجعل من اليسير أن نتعرف على تلك المواطن التي نبه فيها الشارح على هذا الجانب، وإن كانت قاصرة - على كثرتها قياسا لغيره من الشراح - عن الإحاطة بكل ما في أشعار الحماسة من مواضع تُلِمُّ بهذا الجانب.

ومن الأمثلة التي تؤيد ما أسلفناه ما عقّب به المرزوقي على بيت الهذلول بن كعب العنبري حين رأته امرأته يطعن للأضياف، فقالت: أهذا بعلي؟! (الطويل)

وإنّـــي لأُثْـــري الخمْـــدَ أبْقَـــي زِناخَـــةً ... وأتْـــرُكُ قِرْنِـــي وهْـــوَ خَزْيـــانُ ثـــاعِنُ

بالقول: "ولما استعمل الثرى في اكتساب الحمد مجازاً للمعنى، استعمل الربح فيما يتسبب منه وينتج. على ما يتعود في المتاجر، ويتطلب من البياعات ..." (٥).

ومنها أيضًا تعقيبه على بيت أنيف بن حكم النبهاني: (الطويل)

ولَمّـــا عَـــصينا بالـــحُتُوفِ تَقَطّعَـــتْ ... وســـائلُ كانـــت قُبّـــلٌ بـــلْمَا جِنانُهـــا

---

(١) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٣ / ٥٣).
(٢) محمد الطاهر بن عاشور: شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة، ص ٧٩.
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: المقدمة، ص ١١.
(٤) نفسه - المقدمة، ص ١١.
(٥) نفسه: حماسية (٢٣٩). (١ / ٧٠٠).

"جعل انبتات الوسائل وانقطاع الأواخي عند استعمال السيوف لأن الأمر يشتد عنده، والقراع يكشف معه. ولهذا لما استوصف عمرو بن معد يكرب أنواع السلاح قال في السيف: عنده تتكل الأسنة. وقوله: كانت قبل سلماً حبالها، يريد به أن حبال تلك الوسائل كانت مفتولةً على الصلح فتقطعت باستعمال السيوف، لأن كلاً منها صار واتراً وموتوراً، فسقط العلامة من بينهم" (١).

وقد أولى الشراح - كذلك - جانب مناسبة المستعار منه للمستعار له شطرا من اهتمامهم مثلما أولوا جانب مشاكلة اللفظ للمعنى، وخصوه بجزء من عنايتهم، ولما لا وهو يرتبط برباط وثيق بالمعنى، وما يتبعه من دلالات.

فالمراد بالمناسبة هنا قوة المشابهة، وهي تعد من الأسس المهمة - إلى جانب مشاكلة اللفظ للمعنى - التي بني عليها عمود الشعر عند العرب، وعيارها كما يقول المرزوقي: "الدُّهن والفطنة وملاك الأمر" تقريبُ التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبَّه والمشبَّه به، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعار لأنه المنقول عنا كان له في الوضع إلى المستعار له" (٢).

وهو ما يدفع بعض الشراح - أحيانا - بالتنبيه عليها ، إذا أغفلها الشاعر ولم يلتزم بها، كما في قول أبي القمقام الأسدي: (الكامل)

منعتْكَ بالظِّلِّ الفَتِيُّ وبالضُّحَى ... ولبِئْسَ مانعُ ظِلِّكَ والعَشِيِّ خَمِيمُ

"... والظل يكون للشجرة وغيرها بالغداة، والفيء بالعشي، فكان في الواجب أن يقول : سقيا لظلك بالغداة، ولبيتك بالعشي. ألا ترى قول الآخر: (الطويل)

فَلا الظِّلُّ مِن بَرْدِ الضُّحَى تَستَطِيعُهُ ... ولا الفَيْءُ مِن بَرْدِ العَشِيِّ تَذُوقُ

إلا أنه سمى الفيء ظلاً لتشابههما في منظر العين والفناء. فلما تساويا وأجرى عليهما معاً لفظة الظل، وكان الواو يفيد الجمع من دون الترتيب - لم يبال أن يقول بالعشي وبالضحى، فيقدم بالعشي، ولئن كان الظل أليق بأن يليق بالضحى لو جرد. ولم يشبه هذا قول القائل: فلان أشعر الجن والإنس، لتركه فيما تقدمه من المعطوف والمعطوف عليه طلب المطابقة والموافقة. ألا ترى أن الوجه في هذا أن يقال: فلان أشعر الإنس والجن ليصح لفظ الأول، ويضاف أشعر إلى ماهو بعضه ثم يجيء الثاني؛ وأن قولك: سقياً لظلك وقد نوبت إجراء الظل للفيء أيضاً صار حكمه حكم اللفظة الموضوعة لشيئين، فإذا كان كذلك فأيهما أوليته من العشي والضحى فقد وقع إلى جنب ما يطابقه ويوافقه. فإن قيل: لو سلم لك ما تقوله وتدعيه من الاستعارة لما سلم الكلام المتنازع من أنه جاء على غير حده؛ وذاك أن الظل يكون في الضحى حقيقة على المجاز. قلت: إن الظل فيما حكاه الخليل ضد الضح، ويقال: أفاء الظل وتفيأ. وفي القرآن: " يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل "، فهو ظل قبل الفيوء وبعده، وإنما نسخة للشمس هو الذي صار به فيئاً، وإذا كان كذلك لم يكن من باب ما يكون حقيقة في شيء، ومجازاً في آخر. وهذا بين" (٣).

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة حماسية (١٣٣)، (١ / ١٧٣).
(٢) نفسه. المقدمة، ص ١٠، ١١.
(٣) نفسه. حماسية (٥٦٨)، (٢ / ١٣٧٧ ، ١٣٧٨)

وهو ما أكد عليه ابن جني بقوله: "الظل للشجرة وغيرها بالغداة، والفيء بالعشي، فقد كان يجب على هذا أن يقول سقيا لفيئك بالعشي ولظلك بالضحى فيقدم في أول كلامه ما يطابقه، ويتأول لخلاف الثاني الأتي من بعده ليكون في ذلك كقولهم: فلان أشعر الإنس والجن، فتقدم ذكر الإنس لتطابق فلانا أعني زيدا أو جعفرا أو نحو ذلك ثم يأتي الثاني وقد صح لفظ الأول" (١).

وإذا نظرنا في الشروح وجدنا اهتمام الشراح الكبير بالجانب النحوي وربطه بالمعنى، فتراهم يولونه عناية كبرى حتى لربما من أبرز المجالات التي جالوا فيها.

فالشارح في إسهامه في هذا الجانب "لا يقف عند حد التراث الموروث، بل يتسع لاجتهاداته الخاصة واجتهاداته،خاصة حين يتصدى للأمور التي تحتاج إلى تحويز أمور لم يستطع السابقون الوصول إلى توضيحها، أو تعليلها"(٢).

وهو ما يدل دلالة واضحة على أن النحو كان أحد الأعمدة الرئيسة التي ارتكن إليها الشراح في شرحهم، وهو ما يؤثر في المعنى تأثيرا مباشرا.

حيث نجد الشراح يعولون على هذا الجانب في الكشف عن دلالة بعض المعاني، وكذلك قد يعولون على المعنى في تحديد الوجه الإعرابي لبعض المفردات، فالعلاقة بينهما قوية رصينة يؤثر كل منهم في الأخر، ويتأثر به.

فمن المواضع التي تعرض لها الشراح - أثناء إضاءة هذا الجانب - لتوضيح مواضع الكلم، وتحديد محلها من الإعراب، بناء على دلالة المعنى والسياق الواردة فيه، كلمة (مُذْنِبٌ) في بيت أخر: (البسيط)

تَرَكْتُ ضَأْنِي تَئُوءُ الذِّئْبُ رَاعِيهَا ... وَأَنْهَا لا تَرَانِي آخِرَ الأَبَدِ

الذِّئْبُ يَطْرُقُهَا فِي الدَّهْرِ وَاجِدَةً ... وَكُلُّ يَوْمٍ تَرَانِي مُذْنِبٌ بِيَدِي

"... ومذنبة بيدي نصب على الحال أي تراني حاملاً مذنبة لها وإن شئت رويت مذنبة ويكون بدلاً من المضمر في تراني وهذا البدل هو بدل الاشتمال أي ترى مذنبة ببدي فأما وجه الرفع فالضمير الذي في بيدي سيغني عن الواو المعلقة للجمل بما بعدها وهي صفات أو أحوال لأن الضمير يعلق كما يعلق العاطف ومن الوجه الثاني وهو البدل قول الله تعالى: "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه" وقال أبو العلاء مذنبة الأجود فيها الرفع على الابتداء ويكون ما بعدها في موضع حال لأن الرؤية هنا رؤية العين والفعل يكتفي بالاسم الأول" (٣).

ومما حددوا فيه المعنى تبعًا لاحتمالات الإعراب، إعراب كلمة (قضاء) في قول سعد بن ناشب: (الطويل)

مَأَغْبَلُ عَنِّي العَارَ بِالمُذْنِبِ جَالِبًا ... عَلَيَّ قَضَاءُ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِبَا

"أصل القضاء الحتم ثم يتوسع فيه فيقال قضى قضاؤك أي فرغ من أمرك فاستعمل في معنى الفراغ من الشيء، ويروى قضاء الله وقضاء الله بالرفع والنصب، فإذا رفعت فأنه يكون فاعلاً لجالبا عليّ وما كان جالبا في

(١) ابن جني: التنبيه على مشكل أبيات الحماسة: ص ٣٢٨، حماسية (٢١٧).
(٢) د/أحمد حسان السري: شروح الشعر الجاهلي، مناهج الشراح (٢ / ١٧٣).
(٣) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٤ / ٦٣).

موضع مفعول ويكون القضاء بمعنى الحكم. والتقدير: سأشغل العار عن نفسي باستعمال السيف في الأعداء في حال جلب حكم الله على الشيء الذي يجلبه، وإذا نصبت القضاء فإنه يكون مفعولاً لجالبا وفاعله ما كان جالبا ويكون القضاء الموت المحتوم، كما يقال للمصيد الصيد وللمخلوق الخلق، والمعنى: جالبا على الموت جالبه" [1].

ومن خلال ما سبق يمكن التوصل إلى الأسس والمعايير التي وجه بها الشراح الإعراب والمعنى، وفق علاقة التأثير والتأثر بينهما، أهمها:

أ- صحة المعنى [2]، كما في قول الكروس بن زيد: (الطويل)

ألا ليْتَ حظّي مِنْ عطائِكَ أنّني ... غلبْتُ وراءَ الرّمْلِ ما أنْتَ صانِعُ

" يقول: تمنيت أن يكون الذي حظيت به من عطائك لي أني علمت وأنا وراء الرمل ما أنت صانعه وقد قمت عليك. فقوله وراء الرمل ظرف لعلمت، وأنني علمت خبر ليت، كأنه ود أن يكون بدل حظه من العطاء علمه بما يفعله، فكان اختياره بحسبه. ولا يجوز أن يكون وراء الرمل يتعلق بصانع، لأنك إن جعلت ما موصولاً فالصلة لا تتقدم هي على الموصول، ولا شيء مما يتعلق بها. وإن جعلت ما موصوفاً فالصفة لا تتقدم على الموصوف ولا ما يتعلق بها، وإن جعلت ما استفهاماً فما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله. وإذا كان كذلك ظهر فساد تعلقه به على الوجوه كلها، من طريق الاعراب ومن طريق المعنى، فالصحيح ما قدمته " [3].

ب – إجادة المعنى، كما في قول سويد المرائد الحارثي: (الطويل)

تَعَشَّرِي لَقَدْ نَادَى بِأَرْفَعِ صَوْتِهِ ... نَعِيُّ سُوَيْدٍ لَمْ فَارِسَكُمْ هَوَى

أَجَلْ صَابِقًا وَالقَائِلُ الفَاعِلُ الَّذِي ... إِذَا قَالَ قَوْلاً أَنْبَطَ الغَاءَ فِي الثَّرَى

" وقوله "أن" صاحبكم، أراد بأن صاحبكم، فحذف الباء ووصل الفعل. وانتصب صابقاً على الحال، والعامل فيه ما دل عليه الكلام من معنى قلت. والقائل الفاعل عطفه على صاحبكم، ويجوز أن ترفعه، كأنه قال: وهو القائل الفاعل؛ والنصب أحسن وأجود ... لأن هذا العطف لا يكون إلا على صاحبكم. فكأنه صدقه في الأمرين جميعا، وزاده من بعد ما زانه " [4].

ج- الالتزام النحوي [5]: فـ "العلاقات الإعرابية هي جسر إلى الفهم و تحديد المقاصد، بل إننا نزعم أن المعنى المعجمي للكلمة لا يتيح فهم المقاصد إلا إذا انخرطت الكلمة في سلك النظم واتخذت لها وظيفة بعينها" [6]، لهذا هو السروري يرد رأي بني تميم في إعراب كلمة (حياد) في قول زياد بن حمل، قبل زياد بن منقذ: (البسيط)

لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ إِذَا يَغْدُونَ أَرْبِيَةٌ ... إِلا جَيَادٌ قَسِيُّ النَّبْعِ وَاللُّجُمُ

---

(١) السروري: شرح ديوان الحماسة (١ / ٣٥).
(٢) د/مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس: ١٣٨-١٤٢.
(٣) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة. (٢ / ١٤٨٨).
(٤) نفسه، حماسية (٢٧٤)، (١ / ١٤٠)
(٥) د/مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي في الأندلس. ١٣٨-١٤٢.
(٦) د/أحمد الودرني: شرح الشعر عند العرب، ص ٢٤.

"وقوله إلا جياد رفعه والوجه الجيد النصب، لأنه منقطع مما قبله، لكن بني تميم يرفعون مثل هذا على البدل. وهذا يشبه بدل الغلط لهذا ضعف في الإعراب" (١).

فهناك ميل واضح من الشارح إلى رأي جمهور من النحويين القائل بأفضلية النصب مع جواز الرفع على البدلية ، على اعتبار أن المستثنى المنقطع بعد " إلا " " إنما هو منصوب بعامل قبلها ؛ شأنه في هذا شأن المستثنى المتصل . فما بعد "إلا " عند سيبويه - مفرد سواء أكان متصلا أم منقطعا . وهي بمعنى : 'لكن' " العاطفة التي لا يقع المعطوف بها إلا مفردا ، غير أن " إلا " ليست حرف عطف " (٢).

هـ - سياق النص ووحدة الأسلوب (٣):

كما في قول عمرو بن مخلاة الكلبي: (الطويل)

طَعَنَّا زِيَادًا فِي اسْتِهِ وَهُوَ مُنْبِرٌ ... وَثَوَّرَ أَصْحَابَتْهُ السُّيُوفُ القَوَاطِعُ

"وقوله وثوّر أصابته السيوف القواطع، رفع ثوراً لأن الفعل بعده شغل عنه، وإن نصبه طلباً للمطابقة إذ كان في الجملة التي قبله منصوبٌ كان أحسن" (٤).

بيد أن اهتمام الشراح بالتوافق بين النحو من جانب والمعنى من جانب آخر، لم يكن ليقف عند حدود الإعراب، بل كان الأمر يتطرق بهم - أحيانا - للدخول في بعض المسائل النحوية واللغوية، زيادة في توطيد هذه العلاقة المتبادلة بين الجانبين، وذكر ما تشتمل عليه من معلومات تفيد القارئ؛ لأنهم لا يقنعون إلا بما يزيد الأمر وضوحا وتوضيحا.

وإذا نظرنا إلى اهتمامهم هذا، وجدناه يرتكن إلى مبادئ ومعايير رئيسة منها (٥):

- التعريف والتنكير ، كما يتضح في قول آخر: (الطويل)

فَأَوْسَعْتُنِي خَمْسًا وَأَوْسَعْتُهُ قِرًى ... وَأَرْجَحْنَ بِخَمْسٍ كَانَ كَامِئَةَ الأَكْلُ

" وقوله كان كامئه أكل جعل النكرة اسم كان، والمعرفة خبراً. وابهام الحاصل من التنكير في هذا الموضع أبلغ في المعنى المستفاد " (٦).

فقد أكسب التنكير بلاغة للمعنى، و زاد في تفسير مكنون البيت إيضاحا، فهو في هذا السياق أجود وأبلغ من التعريف.

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ١٤٠٢).
(٢) عباس حسن: النحو الوافي: دار المعارف بمصر، ط٣، (٢ / ٣٣٣)، وانظر كذلك: (٢ / ٣٢٠) وما بعدها.
(٣) د/السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح التنساء على شعر أبي العلاء، ص ٢٧٨.
(٤) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٢١٤)، (١ / ٦٤٨).
(٥) انظر د/السيد حمدان: القضايا البلاغية والنقدية في شروح التنساء على شعر أبي العلاء، ص ٣٧٩ . ٣٨٣، العناصر فقط خلا الشواهد والتعليقات
(٦) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٦٧٦)، (٢ / ١٥٦٨).

وقد يتساوى التعريف والتنكير في الفائدة التي تعود على أداء المعنى المراد والدلالة عليه، كما في قول عاتكة بنت عبد المطلب: (مجزوء الكامل)

سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ أَفُوهًا ... وَلْيَخْشَفِ مِنْ شَرِّ صَنَاعَهْ

"فإن قيل: لم ذكر قوله من شر، والذي يومي إليه يجب أن يكون معروفاً مشهوراً؟ قلت: إن فائدة المنكر مثل فائدة المعرف في مثل هذا المكان، ألا ترى أنك تقول: فلانٌ يلبس حزًا وقزًا، والخز والقز، فلا يختلف المفهوم منهما؟"(١).

- الوشائج بين كلمات الأبيات وربط ذلك بالمعنى، فقد وجدنا في شروحهم حديثًا عن الروابط والألفاظ التي تعضد من الترابط والتلازم بين مكونات البيت الشعري على اختلاف عناصره داخل السياق.

فتراهم يستحسنون كثيرا من التراكيب التي استخدمها الشاعر بدقة؛ خدمة للمعنى، ووفقا للسياق الوارد فيه، مثل استخدام شاعر الحماسة (جعفر ابن علبة الحارثي) حرف العطف (ثم)، وتمييزهم بين دلالته في عطف كلمة على كلمة، وبين دلالته في عطف جملة على جملة، ودوره في إكساب بيت شاعر الحماسة التالي صنعة شعرية، ورواء لغوي له معنى ومغزى. حيث يقول: (الطويل)

لَا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ ... يَرَى غَمَرَاتِ الموْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

"فإن قيل: لم عطف الزيارة على رؤية الغمرات بحرف المهلة، وهلا جعلها عقيب الرؤية؟ قلت: إن " ثم " وإن كان في عطفه المفرد على المفرد يدل على التراخي فإنه في عطفه الجملة على الجملة ليس كذلك. ألا ترى قوله عز وجل: " وما أدراك ما العقبة. فك رقبة. أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة. يتيماً ذا مقربة. أو مسكيناً ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا ". ولا يجوز تراخي الإيمان عن شيء مما عدده وذكره "(٢).

- ومن الموضوعات الجوهرية التي سلقها الشراح بين ثنايا شرحهم على الشعر، وتبرز مدى اهتمامهم باللغة وربطها بالمعنى، "موضوع التصغير" وتنبيههم على بعض مواضع استخدام شعراء الحماسة للغة في التصغير، وأثره في المعنى، من ذلك تصغير (إرواد) في قول وداك بن نميل المازني: (الطويل)

رُوَيْدًا بَنِي شَيْبَانَ بَعْضَ وَعِيدِكُمْ ... تُلَاقُوا غَدًا خَيْلِي عَلَى مَنْ قَرَانِ

"رويداً: تصغير إرواد، وهو مصدر أرودت فلانًا، على طريق الترخيم، وانتصابه بفعلٍ مضمرٍ دل عليه لفظه. وأكثر ما يجيء تصغير الترخيم يجري في الأعلام، وقد يجعل رويدًا اسمًا لارفق، فينبغي حينئذ كما ينبغي أخواته من أسماء الأفعال على ذلك ما جاء في المثل من قولهم: رويد يعلون الجدد. وقد تزاد كاف الخطاب عليه فيقال: رويدك، على ذلك قولهم: رويدك الشعر يغث وقوله: بعض وعيدكم انتصب بفعلٍ مضمرٍ دل عليه رويد، لأن مع استعمال الرفق كفاً عن بعض الوعيد، فكأنه لما قال أرودوا يا بني شيبان قال: كفوا بعض الوعيد. وهذا تهكمٌ وسخريةٌ" (٣).

---

(١) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، حماسية (٢٥٠)، (١ / ٧٤١).
(٢) نفسه، حماسية (٥)، (١ / ٤٩ ، ٥٠).
(٣) نفسه، حماسية (١٧)، (١ / ١٢٧).

- أضف إلى ذلك أنهم كانوا أثناء تحليلاتهم اللغوية تلك، وعلاقاتها بالمعنى، تراهم يمزجون الجانب البلاغي بها، ويوضحون أثر ذلك في أداء المعنى، ومدى توفيق الشاعر أو مخالفته في الوفاء به. فيستحسنون ما وافق ذلك، ويعيبون على ما خالفه، من مثل حديثهم عن العلاقة بين ترتيب الجموع وبين دلالة السياق الواردة فيه، فمراعاة الشاعر لترتيبه الجموع من الأدنى إلى الأعلى بلاغة، استوجب استحسانهم لبيت مطيع بن إياس: (المنسرح)

وما أهلي بكُوا لِقَلْبِي القَرِحْ ... وللدُنوِّ السَمُواكِبِ السَمُفْلِحْ

وهذا ما نلاحظه من قول الشارح: " قوله المواكب جمع ساكبة، ووصف الدموع به على معنى ذات سكوب، كما قيل عيشٌ ناصبٌ، أي ذو نصب على النسبة. والسفح: جمع سفوح، والسكب والسفح يراد بهما الصب إلا أن السفح أبلغ من السكب، لذلك ارتقى من السواكب إليه. وحكى الخليل أن أهل المدينة يقولون: اسكب على يدي. ويقال رجل سفاحٌ للسماء، ولم يقل سكابٌ، لأن السكب لا يبلغ حد السفح " [1].

فمراعاة ترتيب الجموع ها بهذه الصنعة ممكن في دلالته على المعنى الذي يناسب البيت وسياقه بكافة مكوناته.

- أما المسائل الصرفية، فقد توقف أمامها الشراح، وكشفوا عن دورها وأثرها في شرح المعاني؛ فنجد منهم من "يحرص دائما على ذكر الميزان الصرفي للفظ بل يحمله حملا، ويقلبه تقليبا، ذاكرا معناه في كل موضع .. وكيف اشتق، وبم قيس، وكيف عومل إلى آخر هذه الأمور" [2].

ومن هنا وجدنا بعضهم يعرض لصيغتي (فَعْفَل)، و(فعيل) ودلالاتيهما [3]، وكذلك صيغ المبالغة، والمصادر[4]، وجواز استخدام مصدر بمعنى مصدر آخر[5] بغرض المبالغة في المعنى، إلى غير ذلك من المسائل.

- ولم يفت الشراح - إلى جانب ما تقدم - التنبيه على وضع الكلام وترتيبه، وانتظامه، وتتابع أجزائه في الهيكل الأساسي للبناء اللغوي؛ وفقا للمعنى، ومن ذلك تعليقاتهم على التقديم والتأخير وأثره في المعنى، فتراهم استحسنوه في مواضع، وعابوه في مواضع أخرى.

فمن المواضع التي استحسنوه فيها، ما نلاحظه في بيت الأشتر النخعي: (الكامل)

خَيْلاً كأشْكَالِ السَمَغَالِي شُزَّنًا ... تَغْدُو بِبِيضٍ فِي الكَرِيهَةِ شُوسِ

"شبه الخيل في ضمرها وسرعة نفاذها بالجن ... والمعنى: خيلاً تشابه السعالي في حال شزوبها وضمرها. وقوله: تغدو ببيض أيضا صفةٌ، إما لقوله شزباً، وإما للأول تغدو برجالٍ كرام، متكبرين في الحرب، ذوي أنفةٍ.وإذا جمع بين مفرداتٍ وجمل في الوصف، فالترتيب المختار تقديم المفردات على الجمل.وقد جاء البيت على ذلك"[6].

---

(١) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٢٧٨)، (١ / ٨٥١).
(٢) د/أحمد حمال المصري: شروح الشعر الجاهلي، مناهج الشراح (٢ / ١٦٣).
(٣) انظر - على سبيل المثال - في صيغة (فَعْفَل) ودلالتها: المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٧٠)، (١ / ٢٥٨)، وفي صيغة (فعيل). حماسية (٢٥٨)، (١ / ٧٦٩)، وحماسية (٤٧٦)، (٢ / ١٢٥٩).
(٤) انظر - على سبيل المثال - نفسه: حماسية (٩٠)، (١ / ٢٩٤ ، ٢٩٥).
(٥) انظر - على سبيل المثال - نفسه: حماسية (٢٨٠)، (١ / ٨٥٦ ، ٨٥٧)، حيث يقول معلقا على قول الأشجع السلمي: (الطويل)
وما كنتُ أدري ما فواضلُ دلَّهِ ... على الناسِ حتى غُيِّبَتْهُ اللَّمَفَاتِحُ
"الفضلة مصدرا بمعنى الفضل أو الفضائل".
(٦) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (٢٥)، (١ / ١٥٠).

أما المواضع التي لم يستحسنوا فيها التقديم والتأخير، وأخذوا فيها على الشاعر، فمنها قول الفضل بن الأخضر بن هبيرة الضبي: (الطويل)

ألا أيُّهـــا ذا النَّـــابِحُ الـــسيِّدَ إنَّنِـــي ... علـــى نأيِهـــا مُستَبـــدِلٌ مِـــن وَرائِهـــا
دَعِ الـــسِّيذانَ الـــسِّيدَ كانَـــت قَبيلَـــةٌ ... تُقاتِـــلُ يَـــومَ الـــرَّوعِ دُونَ بِـــسابِها
عَلَـــى ذاكَ وِدُّ أثنِـــي فِـــيَّ زَكيَّـــةٌ ... تَجِـــدُّ قُـــوى أسبـــابِها دُونَ مابِهـــا

" قال أبو هلال: قدم وأخر وأساء، ووجه الكلام أن يقول: ألا أيها ذا النابح السيد دعها فإنها كانت قبيلة تحوط حريمها وأبي مع منعتها وعزتها مستبدل من ورائها أيضاً وهي على ذلك تود لي الهلاك وتبغيني العوائل"(1).

إن اعتناء الشراح إذا بالمعاني البلاغية للتقديم والتأخير، كان بقدر اعتنائهم بالظاهرة من جهة نحوية، فدراسة الشراح للبلاغة الكامنة في التقديم والتأخير إنما تعود الى دراسة التركيب النحوي وفهم المعنى الدلالي للنصوص الشعرية، وهذا يتعلق بالبلاغة نفسها، وجعلوا من التزام الشاعر سياق البيت ونظمه، ومراعاة ترتيب نسقه معيارا للاستحسان أو الاستقباح، فما وافق سياق الكلام وراعى ترتيب أجزاء البيت نال استحسانهم، وما خالفه لم يول القبول منهم.

وهكذا ندرك مدى العناية التي أولاها الشراح لعنصري اللفظ والمعنى ومدى التلازم بينهما، وشحذ جل طاقتهم لتحقيق هذا الانسجام والتوافق، وفق معايير وأسس ميزوا بها بين الخبيث والطيب من المعاني، أهمها مما قد سلفت الإشارة إليه: صحة المعنى، إجادته، الالتزام النحوي، ... إلخ.

ومما تقدم يتضح لنا مدى اهتمام الشراح بقضية اللفظ والمعنى، تلك القضية التي كانت ولا تزال تشغل حيزا من اهتمام النقاد حتى الآن، فأسهبوا في تناولها، وعرضها من جوانبها المختلفة.

أما اللفظ فقد تعرض الشراح أثناء تناوله بالتحليل إلى تعزيز تفسيره بالتوجيه والتأويل، وتأصيله وما طرأ عليه من تغيرات، ومعايير وأسس تقديم بعض الألفاظ على بعض .. إلخ.

وأما المعنى فنال ما نال اللفظ من الاهتمام والرعاية، فشرعوا في توضيحه وتعمقه ونقده، والمعايير والأسس التي تميز معنى عن آخر، وما أصاب الشعراء في تناوله من معان وما أخطأوا فيه .. إلخ.

ثم ربطوا بعد ذلك بين اللفظ والمعنى برباط وثيق، قوامه الإبداع، وسعوا من خلاله إلى تحقيق التلازم والتناسب بينهما، وكل هذا عبر فية وحنكة ودراية أظهرها الشراح خلال تناولهم للنصوص الشعرية، فأبانوا عن فهم ثاقب، واستجلاء لما يرمي إليه مصطلح "عمود الشعر" عند العرب، ينبي عن استنباط دقيق، وحس نقدي مرهف.

* * *

(1) التبريزي: شرح ديوان الحماسة: (٢ / ٧٢)، وانظر المرزوقي: شرح ديوان الحماسة: حماسية (١٩١)، (١ / ٥٨٨).